

أبو موسى الحريري

قس و نبي

بحث في نشأة الإسلام

الفهرس

..... مقدمة الكتاب

..... جدول بأرقام و أسماء السور القرآنية

الفصل الأول	:	هوية القس ورقة و حياته
أولا	:	نسب القس ورقة
ثانيا	:	نصرانية القس ورقة
ثالثا	:	أبيونية القس ورقة
رابعا	:	علم القس ورقة
خامسا	:	مهمة القس ورقة
سادسا	:	القس ورقة رئيس النصارى
سابعا	:	موت القس ورقة
خاتمة	:	

الفصل الثانى	:	القس ورقة و النبى محمد فى معترك الحياة
أولا	:	القس يزوج النبى
ثانيا	:	القس يدرب النبى
ثالثا	:	القس يعلم النبى
رابعا	:	القس يعلن النبى خليفته
خامسا	:	القس النبى و النبى القس

الفصل الثالث	:	إنجيل القس ورقة و قرأه
أولا	:	إنجيل القس ورقة
ثانيا	:	القرآن العربى
ثالثا	:	استمرارية الوحي و التنزيل
رابعا	:	محمد يعلم ما تعلم
خاتمة	:	

الفصل الرابع	:	النصرانية و الإسلام دين على دين
أولا	:	النصرانية فى بيت محمد
ثانيا	:	الإسلام قبل الإسلام
ثالثا	:	النصرانية و الحنيفية و الإسلام

رابعاً : الدين القيم

الفصل الخامس : حق القس على النبي

أولاً : في المسيح و أمه و الروح القدس

ثانياً : في الفروض و العبادات و شعائر الدين

ثالثاً : في الحسنات و الصدقات

رابعاً : في الجنة و النار و أحوال المعاد

خامساً : في أمثال الإنجيل القرآنية

الفصل السادس : نجاح و فشل

أولاً : نجاح القس و النبي

ثانياً : فشل القرآن

ثالثاً : محمديون أم قرآنيون ؟

رابعاً : اسألوا أهل الذكر

مراجع الكتاب

مواضيع الكتاب

مقدمة

المقصود هو البحث عن هوية القس ورقة بن نوفل ، و عن صلته بالنبي محمد بن عبد الله . و النتيجة هي إظهار ما أخفاه التاريخ عن حقيقة الإسلام و علاقته بالنصرانية . و لن تمر بالبال قط أى محاولة للتقارب بينهما . تلك المحاولة المستمرة التى ضلت الحقيقة و عطلت العقول . أنها محاولة فاشلة و ضالة ، مع كونها تدعو إلى الونام و الألفة و السلام . هي فاشلة لأنها لم يتوفر لها النجاح يوما ، و هي ضالة لأنها تبنى على أسس غير صحيحة ، و هي مضلة لأن المقصود منها كل شئ سوى حقيقة الدين .

و سبب الفشل و الضلال جهل مطبق بالنصرانية و الإسلام . فلا هذه النصرانية التى يأخذ بها مسيحيو اليوم هي تلك التى كانت فى أيام القس و النبي ، و لا هذا الإسلام هو ذلك الذى دعا إليه كل من القس و النبي . و سبب الجهل يعود إلى أن فرقا شاسعا بين نصرانية القس و مسيحية اليوم ، و بين إسلام النبي و إسلام اليوم . هذا الفرق أضل الكثير من مؤرخى الأديان : فمؤرخو الإسلام حققوا فيما نقلت كتب السير و الأخبار دون أن يحققوا فى مقصود أهل السير و الأخبار ، و حققوا فيما هو عليه القرآن اليوم دون أن يحققوا فيما كان عليه بالأمس . و مؤرخو النصرانية تتبعوا النصرانية فى كل مكان ما عدا المكان الذى احتجرت فيه فى مكة و الحجاز . هذه النصرانية أهملوا تطوراتها و أحزابها ظنا بموتها و انقراضها .

و لنلا يكون كلامنا عاما على النصرانية و الإسلام فإننا سنحدده فى فترة من الزمن معينة ، و هى الفترة التى انقضت فيها النصرانية فى مكة و نشأ الإسلام على انقراضا . و لنلا يدور البحث فى كل شئ فإننا سنقف عند القس و النبي و مقصدهما العظيم . و قد ننكر الآن مقصدهما العظيم هذا ، و لكننا لا نستطيع التناكر للحقيقة التاريخية فمثلا ! أن ما نسعى إليه اليوم من تقارب و نفشل ، قد سعى إليه كل من القس و النبي و نجح . و تم النجاح فى الإسلام بعدما ذابت النصرانية فيه . و لا تظنن ، للمرة الثانية ، أن نصرانية الأمس هي مسيحية اليوم . فتلك أسلمت و هذه لم يعرفها الإسلام قط . و نصرانية مكة ليست هي مسيحية أنطاكيا و روما و الإسكندرية . و مقصد القس و النبي كان تلك لا هذه . و تلك كهذه كانت مبعثرة فى شيع و أحزاب . و أراد القس و النبي جمع شتاتها فى دين واحد جديد . و لكل من القس و النبي ، فى الدين الجديد ، دور : الأول أوحى و علم و درب و أرسل الدعائم ، و الثانى سمع و تعلم و درس و شيد البنيان . و فضل الأول على الثانى كفضل المربي على ربيبه . القس أستاذ علم فتى ذكى الفؤاد عرف اختياره و نجح ، و النبي تلميذ نجيب حفظ ما تعلم و أبدع . الأول نقل كلمة الله الأعجمية إلى لسان عربى مبين ، و الثانى بلغ كلمة العربية و تلاها على المؤمنين . كلاهما عمل لأجل الله ، و لأجل أن يكون للأمة رسول و كتاب . فكان للعرب إله يعبدون ، و رسول يتبعون ، و كتاب فيه يقرؤون . بيد أن النبي استطاع أن يتفوق على القس و يستقل عنه ، شأنه كشأن أى تلميذ بارع يتخطى بذكائه قدرات معلمه . و شأن القس كشأن أى مرب حكيم يترك لربيبه حرية التصرف . لقد كان النبي ، لفرط ذكائه ، ينشد الحرية و يلتمس الاستقلال ، و كان القس ، لوفرة حكمته ، يختفى أمام عنفوان تلميذه بلباقة ، و يتوارى عن مسرح التاريخ الذى وراه وراء ستار حاجب . لقد أدى القس خدمته و ذهب ، و بقى النبي يجاهد و يناضل حتى حفظ له التاريخ أجمل ما حفظ . إلا أن النبي ، كما عرف أن يتدرب على الطقس بأمانة ، عرف أيضا كيف يتصرف بما تعلم بحكمة فجاءت رسالته مناسبة لظروف البيئة و المجتمع .

لابد ، مصيبة عمياء ، أرواها التاريخ كما أراد سواها في هذه البقعة من الأرض . و المصيبة الكبرى تقع ، لا محالة ، على من يريد نبش
مطامير هذا التاريخ المنكود ، لأن المتعصبين للحقائق المنزلة يصعب عليهم البحث في حقيقة التاريخ ، و لن يدركوا أن باستطاعة الله
استعمال البشر واسطة لإعلان كلمته . و مع هذا ، فأنا غير مجبرين على تصديق الحقائق حتى و لو كانت منزلة من لدن الله ، لأن حرية
البحث عن كل شئ مكنون ، فهي أيضا منزلة من لدن الله .

كلن يؤمن بقدرة الله القديرة ، و لا أحد ينكر تصرف الله بملكه كما يشاء . و لكن أيضا لا أحد ينكر حرية الإنسان في البحث عما
يشاء . و لا أحد يسلم بأن الله حفظا لكرامته يسلب الإنسان كرامته . فالله يترك التاريخ يسير ، و يترك الإنسان يتدبر في التاريخ أمره . لهذا
، إذا كانت الحقيقة و حيا من الله فليس كالإنسان واسطة يعنها في التاريخ باسم الله . و بالتالي ، لابد أن يكون الوحي اللاحق تذكرة للوحي
السابق ، كما شهد الكتاب على نفسه : هذا ذكر (38 / 49) ، و هذه تذكرة (74 / 55) ، و كما شهد على نبيه : ذكر إنما أنت مذكر (88
/ 2) و يوم يرتاب النبي من صحة ما يذكر به يقال له : " إن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك " (10 /
94) هذه القراءة ال من قبل تنبئ ، لا محالة ، عن واحد كان قبل النبي يقرأ عليه الكتاب و يهمس في أذنه وحي الله من وراء الستار .
لقد عظم على المتدينين أن يروا النبي غير الله ، أما الحق فيقضى على بأن أعطى للتاريخ دوره ، و بأن أرى الله يستعمل البشر
واسطة بعضهم لبعض للوصول إليه . و لن أكون بذلك أقل إيمان منهم . و غالبا ما يخفى التاريخ من على صفحاته دور البطل الأساسى ، و
ذلك لكى يبقى له فاعلية السحر و رهبة السر . و بطل الإسلام هو القس ، و اسمه فى التاريخ " ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن
قصي " . عرف بانقطاعه عن الناس و بخلوته بربه ، فحفظ له التاريخ انقطاعه و خلوته . و أخشى فيما أخشى أن أقطع عليه خلوته هذه
فأظهر ما ود التاريخ إخفاءه . لا بأس ، فان من يتحمل ظلمة غار حراء يتحمل نقل الكلام عليه ... جل ما أبغى ألا أترك النبي معلقا بين
الأرض و السماء ، لا أصل له و لا أساس ، و لو اضطربت بذلك طمأنينة المتدينين .

لكى تتأكد لنا هذه النتيجة ، لابد لنا أن نقابل بين تعاليم القس و تعاليم النبي ، أي بين إنجيل القس و قرآن النبي . و المواضيع
الواردة فى الكتابين تحدد موافقنا من الرجلين . كتاب القس هو الإنجيل بحسب العبرانيين لاشك فى ذلك ، و كتاب النبي هو القرآن و فيه نظر
أن القرآن ، كم وصل إلينا ، فى مصحف عثمان بن عفان ، يتحدى معطيات الواقع التاريخى ، و يقرأ حوادث التاريخ بالمقلوب . فالسور
الأولى هى فى آخره ، و السور الأخيرة هى فى أوله . و بذلك قيست الحقيقة بطول السور و بقصرها . فلكى نقرأ كتاب النبي قراءة صحيحة
علينا أن نقرأ مصحف عثمان بداء من آخره .

ثم أن المواضيع التى يتناولها قرآن النبي تختلف اختلافا جوهريا عن المواضيع التى يعالجها مصحف عثمان . فكلام مسلمى قرآن
النبي على النصرارى ، مثلا ، غير كلام مسلمى مصحف عثمان . أولئك أهل مودة و إحسان ، و هؤلاء مشركون يجب قتالهم . و قصة
عيسى المسيح و أمه فى كتاب النبي تختلف فى جوهرها عما هى فى مصحف عثمان ... و غير ذلك . فى هذه القراءة الجديدة للقرآن قد
تتبدل معنا مفاهيم كثيرة شهد لها المتدينون شهادة زور طيلة ألف و أربعمائة سنة ، و شهد الباحثون المعنيون بأمور الإسلام شهادة خطأ
نتال من حقيقة التاريخ . و قصدهم فى ذلك حفظهم لأيمان الملايين المذولين بالوحي ذهولا ، و المظمنين إلى الله كأنه فى متناول كل عقل
مرتاح .

و سبب مصيبتنا هذه أربعة : جهلنا بالقس و كتابه ، و اعتمادنا على مصحف عثمان على حساب قرآن النبي ، و محاولتنا الفاشلة أبدا فى
الوفاق بين المسيحية و الإسلام ، و أخيرا ارتياحنا التام إلى الحقيقة كل الحقيقة كأنها وحي من عند الله لا مجال للبحث فيها .

جدول بأرقام و أسماء السور القرآنية

الرقم	السورة	الرقم	السورة	الرقم	السورة	الرقم
1	الافتحة	33	الأحزاب	65	الطلاق	97
2	البقرة	34	سبأ	66	التحریم	98
3	آل عمران	35	فاطر	67	الملك	99
4	النساء	36	يس	68	القلم	100
5	المائدة	37	الصفافات	69	إلحاق	101
6	الأنعام	38	ص	70	المعارج	102
7	الأعراف	39	الزمر	71	نوح	103
8	الأنفال	40	غافر ، المؤمن	72	الجن	104
9	التوبة- البراءة	41	فصلت ، حم السجدة	73	المزمل	105
10	يونس	42	الشورى	74	المدثر	106
11	هود	43	الزخرف	75	القيامة	107
12	يوسف	44	الدخان	76	الدهر ، الإنسان	108
13	الرعد	45	الجاثية	77	المرسلات	109
14	إبراهيم	46	الإلحاق	78	النبأ	110
15	الحجر	47	محمد	79	النازعات	111
16	النحل	48	الفتح	80	عبس	112
17	الإسراء	49	الحجرات	81	التكوير	113
18	الكهف	50	ق	82	الانفطار	114
19	مريم	51	الذاريات	83	المطففين	
20	طه	52	الطور	84	الانشقاق	
21	الأنبياء	53	النجم	85	البروج	
22	الحج	54	القمر	86	الطارق	
23	المؤمنون	55	الرحمن	87	العلی	
24	النور	56	الواقعة	88	الغاشية	
25	الفرقان	57	الحديد	89	الفجر	
26	الشعراء	58	المجادلة	90	البلد	
27	النمل	59	الحشر	91	الشمس	
28	القصص	60	المتحنة	92	اللیل	
29	العنكبوت	61	الصف	93	الضحی	
30	الروم	62	الجمعة	94	الشرح ، الانشراح	
31	لقمان	63	المنافقون	95	التین	
32	السجدة ، ألم السجدة	64	التغابن	96	العلق	

الفصل الأول

هوية القس ورقة و حياته

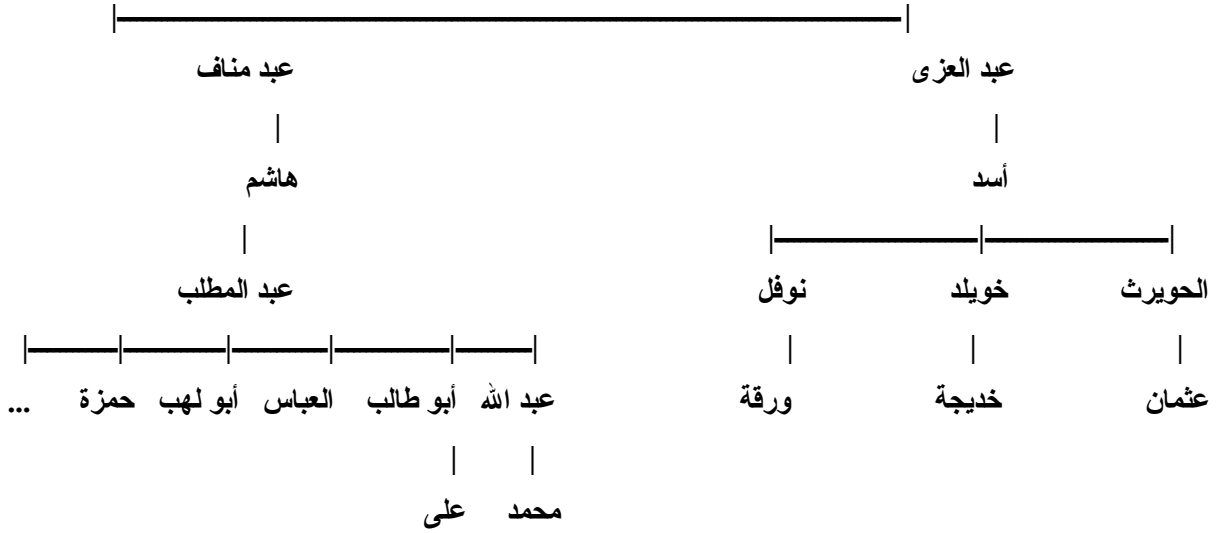
- أولا : نسب القس ورقة
- ثانيا : نصرانية القس ورقة
- ثالثا : أبيونية القس ورقة
- رابعا : علم القس ورقة
- خامسا : مهمة القس ورقة
- سادسا : القس ورقة رئيس النصارى
- سابعا : موت القس ورقة

أولا : نسب القس ورقة

هو القس ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، ابن عم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، زوجة النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى .

فيكون قصى الجد الثالث لورقة و خديجة ، و الجد الرابع لمحمد . و الثلاثة يلتقون فى قصى نسبا و جاها و إيمانا و دينا و مقاما . و الثلاثة من قريش سدنة الكعبة ، و من سكان مكة ، و أصحاب دار الندوة .

قصى



عرف بن قصى انه تولى أمر الكعبة بعد طرده قبيلتى بنى بكر و خزاعة من مكة ، و انه جمع شتات القبائل المبعثرة فى شعاب مكة و بطحها تحت زعامته ، و أطلق على هذا التجمع اسم قريش و قريش هو التجمع من قول ابن اسحق " إنما سميت قريش قريشا لتجمعها بعد تفرقها " و يقال للتجمع التفرش . (1) و لم تزوج قصى من ممبى بنت خليل الخزاعى ، و كان له أولاد و مال ، عظم شرفه و جمع قومه و تملك عليهم . فكانت إليه ستة أمور : الحجابة و القيادة و السقاية و الرفادة و الندوة و اللواء ، توزعها أبناؤه الأربعة من بعده بالتساوى (2) ، و هم عبد الدار و عبد العزى و عبد قصى و عبد مناف .

و نحن نعرف الكثير عن فرع عبد مناف من كتب السير و الأخبار ، و لكننا لا نعرف شيئا يذكر عن فرع عبد العزى . و قد يكون ذلك إهمالا مقصودا أو لامبالاة من قبل أصحاب السير . و سبب ذلك أنه لا علاقة قريبة بين ما تهتم به السيرة النبوية من أخبار عن النبى و بين ما لا صلة له بهذه السيرة من أبناء قصى و أحفاده الآخرين . و هذا هو همناف فى كتابة هذا البحث عن القس ورقة و فى السعى وراء هوية هذا الفرع المنكود الحظ الذى لم يحظ بما يستحق من عناية .

و قد يكون ما كتبه أهل السيرة النبوية عن فرع عبد مناف و أحفاده غير موافق للحقيقة ، لأن هم الذين كتبوا عنه كان لأجل غاية معروفة و مقصودة سلفا ، و هو أن يدلوا على جدة الرسالة المحمدية و إظهار ما سواها ظلما قاتمة و وضعها فى خاتمة الجاهلية . كما أن الإهمال الذى حدث بالنسبة إلى فرع عبد عزى ربما كان هو الآخر مقصود إذ كان من المفروض على أهل الأخبار أن يعنوا بالتاريخ فى جميع جوانبه ، و أن يولوا الأحفاد عبد العزى اهتمامهم ، فى حين أنهم رجعوا بسلالة النبى إلى إسماعيل و إبراهيم و آدم ، و دققوا فى أخبار كل جد من أجداد محمد .

(1) سيرة ابن هشام (1 / 87)

(2) سيرة ابن هشام (1 / 115)

ملاحظة عامة : الرقم الأول يشير إلى السورة و الثانى إلى الآية أو الآيات لأنه لا يذكر اسم السورة بل يشير إلى رقمها فقط .

راجع الجدول ص (7) لتعلم .

نسب ورقة

و كما أن كتاب السير و الأخبار راحوا فى كتابة سيرة فرع عبد مناف انطلاقا من النبى محمد ، فنحن أيضا سنعمد فى كتابة سيرة

فرع عبد العزى انطلاقاً من القس ورقة . و القليل المذكور عن القس لا يسمح لنا بوافر من المادة لارواء غليل المتبحرين . عكس ذلك عما هو المعروف عن النبي . و إذا كان حظ أجداد النبي أنهم عرفوا بالنسبة إليه و بفضلته ، فلن يقل حظ القس فيما عرف عنه بالنسبة إلى النبي و بفضلته أيضاً . لذلك سيتضح لنا نسب القس بصلته بالنبي ، و ستتضح لنا رسالة النبي لصلته بالقس .

فالمهم إذن أن القس ورقة و خديجة و النبي محمد ينتمون إلى قصى الجد الأول لقبيلة قريش ، الذى ، بمساعدة قبيلة بنى عذرة النصرانية ، أخرج خزاعة من مكة و قضى عليها (3) و فى رواية أخرى أن قيصر الروم أعان قصيا على خزاعة (4) و ذلك عن طريق الغساسنة حلفاء الروم . و قد تكون قبيلة بنى عذرة النصرانية ، التى عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام ، هى التى توسطت فيما بين قصى و الروم ، و قد كانت خاضعة لنفوذهم (5) و هى الإشارة الأولى لعلاقة قبيلة قريش ، منذ نشأتها ، على يد قصى مؤسسها ، بالروم و القبائل النصرانية . و لا بد أن يكون لهذه العلاقة السياسية من أثر فى الدين و الإيمان . و يشهد على ذلك هدم قصى للأصنام التى أدخلتها قبيلة خزاعة على يد ملكها " عمرو بن لحي " الذى غير دين التوحيد (6) .

و المعروف عن قصى أنه كان أول من بنى الكعبة ، بعد بناء تبع اليمنى ، و سقفها بالخشب ، و أول من أظهر الحجر الأسود ، و كانت قبيلة أياد دفنته فى جبال مكة ، و أول من بنى المساكن فى مكة ، و نقض الخيام ، و أول من نظم شئون المدينة ... و بهذا النسب إلى قصى كان القس و النبي يتشوفان .

(3) طبقات ابن سعد (66 / 1) ، نهاية العرب (20 / 16) ، تاريخ الطبرى (55 / 2)

(4) ابن قتيبة ، المعارف 640

(5) البلاذرى أنساب (47 / 1) ، الكامل فى التاريخ لابن الأثير (7 / 2) ، الأثرى تاريخ مكة ، (55 / 1)

(6) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (14 / 4)

ثانيا : نصرانية القس ورقة

لقد قيل عن القس ورقة أنه كان على دين موسى ، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة و السلام ، أى كان يهوديا ثم صار نصرانيا

(7) هذا القول يعنى أن ورقة كان يأخذ بتعاليم موسى و عيسى معا ، أى كان يقيم التوراة و الإنجيل معا ، بحسب تحديد القرآن : يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة و الإنجيل (5 / 68) ، و يعنى ثانيا أن ورقة كان مقتصدا فى عقيدته ، لا يغلو فى نظريته إلى المسيح كوفد نجران المسيحي القائل بألوهية المسيح ، و لا يقتصر على موسى كاليهود الذين ينكرون على عيسى نبوته . فورقة إذن يكون من اليهود المتصرين ، أى من اليهود الذين تنصروا ، و اعتقدوا فى المسيح نبيا أتى يكمل ناموس موسى دون أن يكون إلها أو أبنا لله ، و يعنى أخيرا أن بعضا من العرب قد استجاب لبشارة المبشرين من النصارى و لم تبق النصرانية وفقا على الغرباء عنهم .

و شهد التاريخ الإسلامى على تنصر أحياء كثيرة من العرب ، و دل خاصة على دخول النصرانية بعض قبائل مكة و الحجاز ، و أشار بوضوح إلى اعتناق بعض بطون قريش لها ، و أخصها فرع عبد العزى بن قصى . قال اليعقوبى فى تاريخه : " و أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بنى أسد " ... (8) و أشار أيضا إلى تدين قبيلة قريش كلها فى قوله : " و كانت العرب فى أديانهم على صنفين : الحمس و الحلة فأما الحمس فقريش كله " (9) و أوضح معنى هذا التدين قائلا : " كانت قريش و عام ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم ، يحجون البيت ، و يقيمون المناسك و يقرون الضيف ، و يعظمون الأشهر الحرم ، و ينكرون الفواحش ، و التقاطع ، و النظم ، و يعاقبون على الجرائم ، فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت " (10)

و يؤكد الأزرقى فى آثار مكة نصرانية قريش و تدينها فى قوله : و جعلوا (قريش) فى دعائهم (الكعبة) صور الأنبياء و صور الشجر و صور الملائكة . فكان فيها صورة إبراهيم الخليل شيخ يستقيم بالازلام ، و صورة عيسى بن مريم أمه ، و صور الملائكة ، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبل الماء و أمر بطمس تلك الصور . فطمست و قال : ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم و أمه عليهما السلام ، و قال : امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي . فرفع يديه عن صورة عيسى بن مريم و أمه . (11)

أما الكلام على تنصر الكثير من أحياء العرب و قبائلهم فيشهد له المؤرخون و أهل السير عامة . يقول ابن قتيبة : أن النصرانية كانت فى ربيعة و غسان و بعض قضاة (12) و يقول اليعقوبى فى تنصر تميم و ربيعة و بنى تغلب و طى و سنحج و بهراء و سليخ و تنوخ و لحم (13) و يشهد الجاحظ بقوله : كانت النصرانية قد وجدت سبيلها بين تغلب و شيبان و عبد القيس و قضاة و سليخ و العباد و تنوخ و لحم و عاملة و جذام و كثير بن بلحارث بن كعب ... (14)

هذه الشهادات و غيرها فى كتب السير و الأخبار تدل على وجود نصراني و اسع فى مكة و الحجاز و سائر أنحاء الجزيرة العربية و بلاد الشام ، و تدل على اعتناق بعض العرب للنصرانية ، و على كثرة معتقيها . و هو ما يبرر وجود قس عليها يدير شؤونها الروحية و يرفع أمورها الزمنية و الاجتماعية ، و هو القس ورقة بن نوفل قس مكة و قبيلة قريش .

(7) سيرة ابن هشام (1 / 203)

(8) تاريخ اليعقوبى (1 / 257)

(9) نفس المرجع (1 / 256)

(10) تاريخ اليعقوبى (1 / 254)

(11) أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار للأزرقى (1 / 165)

(12) المعارف لابن قتيبة الدينورى ص (621)

(13) تاريخ اليعقوبى (1 / 257)

(14) كتاب الحيوان للجاحظ (7 / 216)

فالجهد مردود على أصحابه لأن معرفتهم تعدت إلى فرع لا أهمية له بالنسبة إلى سيرة النبي و هو فرع عبد العزى ، و التنكر هو طعنة في حقيقة التاريخ . فالنصرانية عزت فرع عبد مناف كما عزت فرع عبد العزى من قريش . و يثبت ذلك تأرجح كتاب السي بين الوثنية و الشرك . و يميل السعوى إلى الرجحة الأولى (15) ، كما سنظهر ذلك .

أما نصرانية القس ورقة فكانت تقوم على ما كانت تقوم عليه النصرانية في تاريخ الكنيسة . قبل عن ذلك أن القس ورقة . كان أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، و طلب الدين ، و قرأ الكتب ، و امتنع عن أكل ذبائح الأوثان (16) و قيل أيضا أنه كان رابع أربعة تركوا الأوثان ، و الميتة ، و ما يذبح للأوثان (17) و هم " عبيد الله بن جحش بن أميمة بين عبد المطلب عمه النبي و قد مات نصرانيا في أرض الحبشة تاركا امرأته أم حبيبة التي تزوجها الرسول من بعده (18) و عثمان بن الحويرث ، ابن عم ورقة بن نوفل و خديجة بنت خويلد زوجة محمد ، تنصر بأرض الروم و حسنت منزلته عند القيصر ، و كان يقال له البطريق ، لا عقب له ، مات بالشام مسموما (19) ، و زيد بن عمرو بن نفيل الذى قال فيه النبي : أنه يبعث أمة وحده (20) ، و هو ابن أخى الخطاب ، اشتهر عنه أنه نهى عن قتل المؤودة (21) هؤلاء الأربعة من فرعى عبد العزى و عبد مناف على السواء ، اشتهروا بتنصرهم وفق الواجبات و الفروض النصرانية المتبعة في الكنيسة ، و المعروفة في مقررات مجمع أورشليم الرسول المعقود سنة 49 ميلادية ، و هى تقوم على الامتناع عن نجاسات الأصنام ، و الفحشاء ، و المخنوق ، و الدم (22) ، كما تقوم على الأخذ بناموس موسى و إنجيل عيسى على السواء ، و على الختان و المعمودية معا ... إلا أن نصرانية القس ورقة و ندنامه الثلاثة الآخرين تختلف على ما يبدو ، عن نصرانية مقررات مجمع أورشليم المنسوبة إلى يعقوب الرسول . فنصرانية يعقوب تؤمن بألوهية المسيح و بنوته لله ، و تحكم بأحكام الإنجيل و تعاليمه ، و تعتقد بصلب عيسى و قيامته من بين الأموات ، فى حين أن نصرانية القس ورقة و زملائه تنكر ألوهية المسيح و بنوته لله إنكارا مباشرا ، و ترفض قيامته و صلبه رفضا قاطعا ، و ذلك ، على ما يظهر ، تبعا لشبهة فى النصرانية معينة أنتمى إليها القس و معظم قبيلة قريش و اعتنقوها و أقاموا فرائضها و موجباتها ، و هى الشبهة الأبوينية .

(15) مروج الذهب للسعوى (2 / 108 - 109)

(16) الأصفهاني فى الأغاني (3 / 113)

(17) طبقات ابن سعد (1 / 162) ، السيرة المكية (1 / 110)

(18) سيرة ابن هشام (1 / 206)

(19) نفس المرجع (1 / 206) فى إشارة حاشية (1)

(20) سيرة ابن هشام (1 / 208)

(21) نفس المرجع (1 / 206 - 207)

(22) سفر أعمال الرسل (15 / 20 و 29) ، (21 / 25)

ثالثا : أبوينية القس ورقة

عرف عن النصارى من بنى إسرائيل الضاربين فى مكة و الحجاز انقسامهم فيما بينهم إلى شيع و فرق و أحزاب (23) و أشار القرآن العربى بوضوح إلى هذه الخلافات ، و قال : اختلف الأحزاب من بينهم (24) ، أى النصارى بحسب تفسير الجلالين للآية المذكورة و قال

أيضا : و من الأحزاب من ينكر بعضه (13 / 36) ، و يصف أحوال كل منهم بأن كل حزب بما لديهم فرحون (25) و لا يعجب أتباع النبي من كثرة الأحزاب هذه لأنهم حذروا منها مسبقا و أعلموا بوجودها : و لما رأى المؤمنون (من أتباع محمد) الأحزاب (عند النصارى) ، قالوا : هذا ما وعدنا الله و رسوله (23 / 22) .

و يخشى النبي فيما يخشى أن يكون أنتمى إلى حزب منها ، أو أن يكون ساهم فى توسيع رقعة الخلاف بينها ، فيقول : أنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل (20 / 94) كما يرفض أن يفرق بين الأحزاب ، بل يريد لها السلم ، و يبغى توحيدها : لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون (26) . و يقول عن أتباعه بأنهم هم أيضا : آمنوا بالله و رسله ، و لم يفرقوا بين أحد منهم (4 / 152) . و فى رأيه أ، كل حزب آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله ، لا نفرق بين أحد من رسله (2 / 285) .

و تضاف إلى شهادة القرآن العربى هذه شهادة التاريخ الكنسى . فهى تشير إلى أسماء هذه الأحزاب و إلى تعاليمها . و ما يؤكد لنا الوفاق بين الشهادتين وحدة التعاليم التى تأخذ بها الأحزاب فى كلا المصدرين . و تقتصر على ذكر بعضها كالأبيونية و القيرنثية و ألكسانية لشهرتها و معرفة تعاليمها :

1 – الأبيونية : و هى فئة من اليهود المنتصرين ، التحقوا بالمسيح و رأوا فيه نبيا عظيما من الأنبياء . لا يعترفون بألوهيته و لا بينوته لله ، بل يقولون بأنه رجل كسائر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان ، أو بالحرى أن المسيح المبدأ الأزلى دخل يسوع يوم عماده و فارقه يوم استشهاده . تقوم رسالته على التعليم و التبشير دون الفداء و الخلاص (27) . يقبل الأبيونيون إنجيل متى وحده ، و يسمونه " الإنجيل بحسب العبرانيين " ، و هو نفسه إنجيل متى الأرامى و لكنه ناقص و محرف و مزيف ، كما يشهد أبيفانوس (28) . أما فروضهم فتركز على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء و التطهير ، و على تحريم الذبائح . و يشددون على أعمال البر و الاهتمام باليتامى و العناية بالفقراء و المساكين و أبناء السبيل ، و يوصون بإعالة المحتاجين و إطعام الجياع و إقراء الضيوف و الغرباء ... و اسمهم يدل على ذلك ، فهو يشتق من قول المسيح : " طوبى للفقراء " ، و بلغتهم العبرانية : " طوبى للأبيونيين " ذكرهم أيريناوس فى كتابه " ضد البدع " (29) ، و أوريجانوس فى كتابه " ضد سلسوس " (30) ، و أبيفانوس فى " الشامل فى الهرطقات " (31) . دخل فى شيعتهم معظم رهبان قمران بعد خراب هيكل أورشليم ، فهاجروا إلى الحجاز و أنتمى إليهم بعض القبائل العربية .

(23) القرآن : (32 / 30) ، (4 / 150 و 152) ، (3 / 103 و 105) ، (42 / 13) ، (9 / 122) ، (2 / 75 و 100 و 101 و 146) ، (3 / 78) و غيرها .

(24) القرآن : (19 / 37) ، (43 / 65)

(25) القرآن : (23 / 53) ، (30 / 32)

(26) (19 / 47) ، (43 / 65)

J. Danielou , *Theologie du Judeo – Christianisme*, 76(27)

Epiphane , panarion XXIX ,3 et 13 (28)

St. Irenee , *Contre Les Heresies I*, 26 , 12 (29)

Origene , *Contre Cels II*,1 (30)

Epiphane , *Panarion XXIX- XXX ...* (31)

أبيونية ورقة

2 – القيرنثية : نسبة إلى مؤسسها " قيرنث " " Cerinthe " تتميز بقولها أن ملكوت المسيح السماوى هو على مثال الأرضى ، و أن دور المسيح يقوم على تحرير شعبه من الحكم الرومانى و الأجنبى ، و مهمته هى سياسية و اجتماعية . و تقول بأن الجنة السماوية من متاع الجسد و شهواته . يذكر أورسابيوس قرنث فى قوله

: " بما أنه نفسه يحب جسده ، و كان شهوانيا ن فهو يحلم أن هذا الملكوت يقوم على الأشياء التي يشتهيها ، أى الطعام و الشراب و لذة الجسد " (32) .

3 – ألكسانية : نسبة إلى " ألكسانى " " Elxai " تذهب فى الغنوص إلى أبعد حد . و تسمى أنصارها " أهل العلم " و تعلم فى المسيح أنه بشر كسائر البشر (33) ، و أن المسيح فارق قبل استشهاده ، و أن الروح القدس تارة هو " أم " المسيح فهو بالتالى مؤنث ، و طورا هو الملك جبرائيل فهو مذكر . و يدعى " ألكسانى " بأن ملاكا دفع إليه بكتاب من السماء كان محفوظا فى لوح مقدس نزله عليه جبرائيل (34) ، و علمه أسرار الحكمة و الغيب .

هذه هى شهادات التاريخ الكنسى على بعض الشيع النصرانية ، و هى على ما يظهر ، تتفق مع شهادات القرآن العربى ، أقله فى الأمور الأساسية مثل إنكار ألوهية المسيح ، و اعتباره نبيا عظيما ، و الشبه الواقع على صلبه ، و مثل إقامة أحكام التوراة و الإنجيل ، و الاهتمام بالمساكين ، و وصف الجنة السماوية ... و غيرها . و يكفى منها شهادة وجودها فى مكة و تعرف القرآن العربى عليها . إلا أن الجانب الأبيونى كان واضحا أكثر من سواه فى حياة القس ورقة و ممارساته الروحية و تحنثه فى حراء . إن ما ظهر من أبيونية القس ورقة فى حياته و ممارساته الروحية و تعاليمه يدل على انتمائه الأكدى إليها . فعدا عن تعاليمه التى نرى لها أثرا واضحا فى القرآن عند كلامنا على ذلك فى الفصل الأخير ، نتوقف الآن على ما عرف عنه فى تحنثه فى غار حراء مع عبد المطلب و عثمان بن الحويرث و عبيد الله بن جحش و أبى أمية بن المغيرة و غيرهم (35) . و التحنث هو التحنف و التبرر و التعبد الليلالى الطوال و إقامة أعمال البر و الإحسان . (36)

و ذلك يقوم على الصيام شهرا كاملا فى السنة ، و على إطعام الجياع و الرأفة بالمساكين ، و على التخلّى عن الناس و الانقطاع إلى الله و التفكير فيه (37) . و يقوم أيضا على اعتزال عبادة الأوثان ، و الامتناع عن أكل الذبائح المقربة إليهم ، و قراءة الكتب المقدسة ، و التأمل فى قصصها و أخبارها (38) ، و الأخذ بالختان و الحج إلى البيت و الغسل من الجنابة و تحريم الخمر و ما أهل لغير الله (39) . بهذه الصفات وصف القس ورقة و من ذكرته كتب السير و الأخبار مثل أبى بكر الصديق و رباب البراء و أسعد بن كريب الحميرى و قس ابن ساعدة الأيادى و أبى قبيس بن صرمة و غيرهم (40) . و لم تكن هذه العبادات بعيدة عن النبى ، فهو أيضا ، كالقس ورقة ، و معه ، تحنثه فى غار حراء ، و مارس هذه الواجبات ، كما ترى فيما بعد .

Eusebe , Histoire Ecclesiastique 3 (32)

Hippolyte de Romme , I x , 14000 (33)

J. Danielou , Theol . de Judeo - Christianisme 68 (34)

(35) السيرة الحلبية (260 / 1)

(36) سيرة ابن هشام (222 ، 218 / 1)

(37) الأصفهاني فى الأغاني (113 / 3)

(38) طبقات ابن سعد (85 / 1)

(39) لسان العرب (402 / 10) ، الكشاف (178 / 1 ، 236 ، 407) ، الطبرسى (467 / 1) ، (109 / 3) تفسير الرازى (57 / 13) ، (10 / 14) ، (171 / 17) ، تفسير الطبرى (104 / 3) ...

تاج العروس (77 / 6) لفظة " حنف " ، القربى (109 / 4) ، القاموس (130 / 3) ، ابن خلدون (707 / 2) ... و غيرهم .

(40) السعودى فى مروج الذهب (77 / 1) .

رابعا : علم القس ورقة

قيل فى القس ورقة أنه كان نصرانيا قد تتبع الكتب ، و علم من علم الناس (41) . و قيل فيه أيضا : أنه استحكم فى النصرانية ، و اتبع

الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب (42) . و قيل " كان قد تنصر و اتبع الكتب " (43) ... هذه الأقوال في القس ورقة تقطع في علمه و في تتبعه المتواصل لدرس الكتاب و في وعيه هذا العلم . فهو يأخذ من أهل الكتاب أى من التوراة و الإنجيل ، و من علماء النصراني الموصوفين في القرآن ب " الراسخين في العلم " (44) ، و " بأولى العلم " (45) ، و ب " الذين جاءهم العلم " (46) ، و ب " من عنده علم الكتاب " (47) ، و ب " الذين أتوا العلم " (48) .

و للعلم في القرآن ، كما لأهله مكان مرموق ، كالمكان الذي يحتله عند أهل الغنوص و المعرفة في الشيعة " ألكسانية " من النصراني . هؤلاء تناط بهم معرفة الحق . و لكثرة ما يعرفون عن الحق تراهم خاشعين متعبدين يفيض الدمع من عيونهم : " ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " (83 / 5) . و يقوم عملهم على معرفة الكتاب بتمامه و كماله ، فهم " الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " (49) . و ما أصحاب الأعراف آلا رجال يعرفون الناس بوجوههم و يدركون عنهم كل خفى مكنون : " على الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم " (46 / 7) .

هؤلاء العالمون الله إليه : " يرفع الله الذين آمنوا و الذين أتوا العلم درجات " (11 / 58) . و هم يفرحون بما لديهم من العلم : " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم " (83 / 40) ، لأنهم يرون أن كل ما أنزل من الله حق : " و يرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق " (6 / 34) . و هم يلبثون في كتاب الله متأملين فيه دون سواء من الكتب : " و قال الذين أتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله " (56 / 30) ، لأن كتاب الله هو لأصحاب العلم آيات بينات : " بل هو آيات بينات في صدور الذين أتوا العلم " (49 / 29) .

أصحاب العلم هؤلاء يحق لهم أن يشهدوا ، مع الله و ملائكته ، على صحة الإسلام و على رسالة محمد : " شهد الله و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام " (3 / 18 - 19) . و تكفى شهادتهم : " قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب " (43 / 13) . أهل العلم هم في القرآن النصراني المسلمون قبل المسلمين : " و أتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين " (42 / 27) ، الذين آمنوا بالقرآن قبل سواهم : " الراسخين في العلم يقولون : آما به كل من عند ربنا " (7 / 3) ، و " الراسخون في العلم منهم و المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك " (162 / 4) .

صفة العلم هذه ليست غريبة عن القسيسين و الرهبان : فخطب القس ابن ساعدة شهيرة في كتب الأدب ، و شهرة الراهب بحيرا ، الذى تعرف عليه النبي في أسفاره إلى الشام ، بعيدة الأثر في نفوس أهل قريش ، و قد قيل عنه : " أنتهى إليه علم النصرانية " (50) ، و الراهب " عداس النينوى " كان يرقى محمدا بما يعرفه من الكتب (51) ، و راهب آخر من الشام يدعى عيصا " أتاه الله علما كثيرا " (52) ، و آخر في عكاظ كان على علم في الطب ، ذهب إليه محمد برفقة جده عبد المطلب يطلب منه شفاء عينيه من رمد أصابهما (53) ... و غيرهم .

(50) سيرة ابن هشام (165 / 1) ، السيرة الحلبية (130 / 1)

(51) السيرة الحلبية (267 / 1) ، السيرة المكية (183 / 1)

(52) السيرة الحبية (78 / 1)

(53) نفس المرجع (135 / 1)

(41) سيرة ابن هشام (175 / 1)

(42) نفس المرجع (1 /)

(43) نفس المرجع (145 / 1) ، السيرة الحلبية (263 / 1)

(44) القرآن (162 / 4) ، (7 / 3)

(45) القرآن (18 / 3)

(46) القرآن (19 / 3) ، (93 / 10)

(47) القرآن (43 / 13) ، (40 / 27)

(48) القرآن (101 / 58) ، (16 / 47) ، (6 / 34) ، (56 / 30) ، (49 / 29) ، (80 / 28) ، (42 / 27) ، (54 / 22) ، (107 / 17) ، (27 / 16) ، (19 / 3) ...

(49) القرآن (146 / 2) ، (20 / 6)

يتتبع الكتب و يتعلم من أهل العلم و يأخذ ممن عنده علم الكتب .

فى هذا الإطار من العلم و المعرفة يدخل القس ورقة كأحد الغنوصيين ألكسانيين المتبحرين فى الكتب ، حتى غذا عالما بها ، عارفا بقصصها ، مفسرا لها ، شارحا بيناتها ، مبشرا بتعاليمها ، ممارسا فرائضها ، قائما على عبادتها ، مفصلا أسرارها ، لكأنه الخبير الحكيم الذى قصده القرآن العربى (1 / 11) فى قوله : " أ ل ر : كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (54) .

" أ ل ر " ، و " ألم " و غيرها من الحروف السرية الواردة فى أوائل السور ... يقول فيها المفسرون : " الله أعلم بمراده " . " أ ل ر " ترد هكذا خمس مرات ، و " ألم " ست مرات . و تبتدى الآيات بعدها بأمر الهى فى أهمية الكتاب ووحى الألهى مثل : " أ ل ر تلك آيات الكتاب " ، و " أ ل ر كتاب أحكمت آياته " ، و " ألم تنزىل الكتاب " ، و " ألم تنزىل الكتاب " ... و قد تعنى ما كان يرد عادة على لسان الأنبياء : " قال لى الرب " ، و فى الأرامية : " أمر لى مريو " = " أمر لى ماريا " ، و ذلك للدلالة على مصدر الكتاب الألهى .

خامسا : مهمة القس ورقة

جاء في صحيح البخارى أن القس ورقة " كان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب " (55) و جاء فى صحيح مسلم أن القس ورقة كان يكتب الكتاب العربى ، و يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب (56) و جاء فى أبى الفرج الأصفهاني أن ورقة كان أمرا تنصر فى الجاهلية ، و كان يكتب الكتاب العبرانى ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب (57) .

لئن كان الخلاف بين هذه الروايات ظاهرا ، فإن بينها ، من حيث المعنى و المدلول ، وفاقا . كلها تشير إلى أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانية إلى العربية ، و إلى أن الإنجيل الذى كان بحوزته و يكتب على تعريبه هو الإنجيل المعروف فى الكنيسة ب " الإنجيل بحسب العبرانيين ط ، أو ب " الإنجيل العبرانى " ، أو أيضا ب " الإنجيل بالعبرانية " ، و تشير أيضا إلى أن القس ورقة كان يعرف ، إلى جانب اللغة العربية ، اللغة العبرانية التى منها ينقل .

لم يعرف ، فى كتب السير و التاريخ ، عن القس ورقة مهمة غير هذه ، وهى مهمة نقل الإنجيل العبرانى . لكانها مهمته الأساسية التى عرف بها و لم يعرف بغيرها . هذه المهمة ، مع تتبعه الكتب ، أكسبته صفة العلم ، حتى غدا من أهله و من " الراسخين فى العلم " و قد يكون النقل من لغة إلى لغة من أهم المهام للذين يوصفون ب " العلم " لذلك ، لم يعرف ، فى زمن النبى ، غير القس ورقة يعمل بالنقل و الترجمة ، مما يدل على تفرد هذا العمل الجليل .

و الكتاب الذى كان القس يعكف على نقله و تعريبه هو " الإنجيل العبرانى " ، المعروف لدى آباء الكنيسة و الواسع الانتشار فى الأوساط النصرانية . فالقديس جيروم وجدده فى حلب و نقله من الآرامية إلى اللاتينية (58) ، و استشهد به أغناطيوس الأنطاكى فى إنطاكية (59) ، و قرأه أوريجينوس فى الإسكندرية (60) ، و نقله القس ورقة فى مكة إلى العربية (61) . و مما يدل على أنه هو نفسه كان بين يدي القس تلك الصلة القريبة جدا بين تعاليمه و تعاليم القرآن العربى الذى ظهر فى فترة زمنية واحدة ، كما سترى أضف إلى ذلك اعتباره إنجيلا خاصا بالشريعة الأبيونية التى رأينا انتماء القس إليها .

و يبدو أن الإنجيل العبرانى هذا كان وحده دون سواه من الأنجيل بين يدي القس ورقة ، بدليل ذكره دون غيره فى كتب السيرة و الحديث ، و بدليل ذكر القرآن لإنجيل واحد معرف بالآلف و اللام ، حيث لا ترد فيه صيغة الجمع إطلاقا ، فى حين إننا نعلم وجود " أنجيل " متعددة ، معروفة منذ الجيل الأول للمسيحية ، إن فى رواياتها القانونية الأربع ، و إن فى روايتها المنحولة فمئذ أوائل المسيحية كان المسيحيون يعرفون إنجيل متى و إنجيل مرقس و إنجيل لوقا و إنجيل يوحنا ، و منذ البدء كان النصارى يعرفون إنجيل بطرس و إنجيل الرسل الأثنى عشر و إنجيل النصارى و إنجيل الطفولة و إنجيل العبرانيين و غيرها .

(55) صحيح البخارى بشرح الكرماني (1 / 38 - 39)

(56) صحيح مسلم (1 / 78 - 79)

(57) الأغاني لأبى فرج الأصفهاني (3 / 114)

(58) St . Jerome , Comm . sur Isaie , X I , 2 ; Comm . sur Ezechiel , X V I I I , 7 ; Comm . sur Ephesiens , V , 3 , 4 ; Com . sur Mat . X I I , 13 ; Dialogue contre Les Pelagiens , I I I , 2 ; De Viris illustribus , I I ...

Ignace d : antioche , Smyrnes , I I I , 2 (59)

Origene , Comm . sur st . Mat . , X V , 14 ; Comm . sur s Jn , I I , 12 (60)

(61) أنظر المراجع السابقة (55 ، 56 ، 57)

فذكر القرآن العربي لإنجيل واحد مفرد ، على إنه الإنجيل الوحيد الذى عرفه ، يثبت أنه " الإنجيل العبرانى " ، خاصة و نحن نجد فيه و فى القرآن وفاقا تماما فى العقيدة و الفروض و العبادات و أحوال المعاد الأخير ، مما سنراه مفصلا فى الفصل الأخير .
أضف إلى ذلك اعتبار القرآن للإنجيل منزلا من عند الله على عيسى ابن مريم : " و أنزل التوراة و الإنجيل " (3 / 3) ، و " قفينا بعيسى ابن مريم و آتيناها الإنجيل " (27 / 57) . و هو يستشهد ببعض أمثاله فى مثل قوله : " و مثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ... " (29 / 48) ، و يستشهد به على صحة دعوة النبى " الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل " (157 / 7) ، و يدعو أهله لأن يحكموا على صدق ما فى القرآن : " و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه (أى فى القرآن) " (47 / 5) ، و يعتبره أخيرا " هدى و نور " (46 / 5) ، (3 / 3) .

هذه الأدلة الخطيرة حقا تجيز لنا القول فعلا بأن القرآن العربى عرف عن كتب الإنجيل الذى كان القس ورقة بن نوفل ينقله إلى العربية ، و هو الإنجيل العبرانى الذى يأخذ الأبيونيون بتعاليمه و فرانضه ، فى حين أننا لا ننكر وجود تعاليم نصرانية أخرى كانت تطوف فى أجواء القس و النبى ، و مردها إلى أناجيل أخرى و كتب نصرانية أخرى وجدت بين شيع نصرانية عرفنا وجودها فى مكة .

سادسا : القس ورقة رئيس النصارى

قيل عن ورقة بن نوفل أنه كان قسا و القس رئيس النصارى (62) و عرف ورقة عن نفسه أمام محفل من قريش يحضر زواج النبي من خديجة قائلا : " نحن سادة العرب و قادتها " (63) . و عرف أهل مكة مقام القس عندهم فلوله أمور دينهم و شؤون دنياهم ، و استرشدوا بآرانه ، كما فعلت خديجة حيث قيل عنها : " أن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة " (64) .

نفهم من هذه الأقوال أن ورقة كان رئيسا على كنيسة مكة النصرانية في زمن عبد المطلب و في فترة من حياة محمد . و كان له فيها دور روحى و زمنى : فعليه تقوم مهمة قيادة الكنيسة ، و تعليم الناس و إرشادهم ، و تفسير الكتاب و تأويله ، و به تناط خدمة الهيكل ، و إليه يرجع فى مختلف أمور الدين العقائدية منها و التشريعية عليه تقوم مهمة تفقيه رعيته الوحي و معانى التنزيل ، يفصل لهم آيات الكتاب ، و ينقل إليهم ما عجم منه ، و يبسرهم لهم بلسان عربى مبين ، و يثبتهم فى إيمانهم ، و يزكيهم من خطاياهم ، و يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهو بكلمة ، أولهم و سيدهم و قائدهم و المسؤول عنهم .

هذه المسؤوليات هى من خصائص كل قس مسؤول و كل رئيس فى كنيسة المسيح . لقد دار حوله كل " الخمس " من قريش ، من عبد المطلب زعيم مكة ، إلى أبى بكر الصديق و عثمان بن الحويرث و زيد بن نفيل و عبيد الله بن جحش و عبد الله ابن جدعان و غيرهم ممن عرف عنهم التحنث و التحنث فى غار حراء . و دار حوله النبي محمد طيلة أربع و أربعين سنة من حياته .

كما كان القس ورقة " رئيس النصارى " هكذا سيكون النبي محمد " أول المسلمين " (65) . و كما قامت مسؤولية النبي على تعليم الناس ما لا يعلمون ، يتلو عليهم آيات الكتاب ، و يزكيهم من خطاياهم : " أرسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ، و يزكيكم ، و يعلمكم الكتاب و الحكمة ، و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (66) ، هكذا كانت مسؤولية القس فى الجماعة النصرانية . و ليس أدل على ذلك من كثرة اهتمام القس بالنبي نفسه : فهو الذى زوجه من خديجة ، و هو الذى دربه على التأمل و الصلاة فى غار حراء ، و هو الذى بدأ فى إعلان نبوته على العرب ، كما سترى .

إن هذه المسؤولية الهامة لجديرة بالاهتمام . فهى تظهر لنا الدور الذى قام به القس فى جماعة مكة النصرانية ، و سلطته فى تعريب الإنجيل من العبرانية ، فى ترجمته على العرب ، و مكانته العالية فى مكة و بين زعماء قريش و تجارها الميسورين ، و توليه أمر الكعبة بيت الله ، و ملازمته الهيكل و الطواف حوله . أنها مهمات تناط بال " رئيس " السيد القائد و الكاهن الجليل . و ربما شعر بعض الصحيح و الحديث بهذا الدور الخطير حتى أعلنوا عن أهمية القس فى مكة عندما قالوا : " و لم ينشأ ورقة أن توفى و فتر الوحي " (67) ، أو ما امتدحه النبي بعد موته فى قوله : " أبصرته فى بطنان الجنة و عليه السندس ، أنى رأيت جنة أو جنتين " (68) .

(62) السيرة الحلبية (1 / 363)

(63) السيرة المكية (1 / 123) ، السيرة الحلبية (1 / 155)

(64) السيرة الحلبية (1 / 275)

(65) القرآن (12 / 39) ، (6 / 14) ، (6 / 163)

(66) القرآن (2 / 151) ، (2 / 129) ، (2 / 239) ، (3 / 164) ن (2 / 62)

(67) صحيح البخارى بشرح الكرماني (1 / 38)

(68) السيرة الحلبية (1 / 274)

سابعاً : موت القس ورقة

المعروف عن موت القس ورقة قليل جدا . فكما نجهل ولادته و مدة حياته كذلك نجهل أسباب وفاته و اليوم الذى توفى فيه . إلا أنه قيل فيه أنه مات عن عمر يفوق المائة سنة . و لا يستبعد طول عمره طالما أنه كان صديق عبد المطلب جد النبي و نديمه . و قد قيل عن عبد المطلب أنه مات و له من العمر مائة سنة و نيف . و يذكر أيضا أن ورقة توفى بعدما بدأ محمد رسالته بثلاث أو أربع سنين ، أى عندما كان لمحمد من العمر أربع و أربعون سنة . و يوافق ذلك ما نراه عند ابن الجوزى فى كتاب الإمتاع " أن ورقة مات السنة الرابعة من المبعث " (69) و فى سيرة ابن اسحق و فى كتاب الخميس ... (70) .

و يرجح طول حياة القس ما كان عليه فى آخر أيامه من صم و عماء . و هو ما يشير إلى نقل عبء السنين عليه و فى الواقع ، إذا كان القس نديما لعبد المطلب يتحنث و إياه فى غار حراء ، و كان محمد يومئذ فى بيت جده طفلا يناهز الثمانى سنين ، ثم توفى القس و لمحمد أربع و أربعون سنة ، يكون على هذا المقدار الكبير من السنين .

أما أثر موت القس على الوحي فظاهر فى كلام البخارى قال : " و لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحي " (71) . و هذا يدل على ما كان عليه القس بالنسبة إلى النبي . لقد كان له العضد الأمين ، و المرشد الحكيم ، و الوسيط الطاهر بينه و بين الله ، و هو ما يشير إلى كونه رجلا صالحا ، له دور فعال فى الدعوة الجديدة التى كان النبي قيما عليها بعد وفاة القس سيد العرب و قائدهم و رئيس دينهم . و يختلف أهل السير و الأخبار فى موت القس ورقة إن كان على الإسلام أو على النصرانية ففى رواية عن ابن العباس أنه " مات على نصرانيته " (72) ، و فى كتاب الإمتاع لأبن الجوزى أن القس ورقة كان " آخر من مات فى الفترة و دفن بالحجون . فلم يكن مسلما (73) و الفترة هى المدة التى تفصل بين عيسى و محمد ، حيث لم يكن نبوة و الحجون هو مدفن الحنفاء من آل قريش ، حيث قبر عبد المطلب جد النبي ووالديه .

إلا أن مفهوم أهل السير و الأخبار للنصرانية ، كدين غير دين الإسلام فيه نظر و مفهومهم لرسالة القس كونها تختلف عن رسالة النبي فيه أيضا نظر .

و فى كل حال أن ما قاله النبي عن مصير القس بعد موته يفوق كل تصور و يتحدى مفاهيم أهل السير و الأخبار للنصرانية و الإسلام يقول النبي : " لقد رأيت القس ، يعنى ورقة ، فى الجنة ، و عليه ثياب الحرير " و فى رواية : " أبصرت فى بطنان الجنة ، و عليه السندس " و فى رواية أيضا " قد رأيته ، فرأيت عليه ثيابا بيضا ، و أحسبه ، لو كان من أهل النار ، لم تكن عليه ثياب بيض " و فى أخرى " لا تسبوا ورقة ، فإنى رأيت له جنة أو جنتين ، لانه آمن و صدقنى " (74) .

فأقول النبي هذه عن مصير ورقة ، أن لم تؤيد إسلامه ، فإنها تؤكد إيمانه و هدايته و بالتالى نجاته ، بل نحاته فى أعلى درجات الجنة . و الذين ميتا على النصرانية يقصدون هلاكه أكثر مما يقصدون نجاته ، لأنه ، فى ظنهم أدرك الدعوة المحمدية دون أن يؤمن بها ، عرفها و لكنه لم يعتنقها ...

(69) راجع السيرة الحلبية (274 / 1)

(70) نفس المرجع

(71) صحيح البخارى (38 / 1)

(72) أنظر قول ابن العباس فى السيرة الحلبية (273 / 1)

(73) ابن الجوزى فى الإمتاع نقلا عن السيرة الحلبية (273 / 1)

(74) ترى هذه الأحاديث للنبي فى السيرة الحلبية (274 / 1)

خاتمة الفصل

القليل المعروف عن القس ورقة بن نوفل في كتب السير و الأخبار يدل على الكثير من نسبه الشريف و مقامه الجليل و مهمته في مكة , و هذا القليل ، ما كنا نعتد عليه ، لو لم يؤيد القرآن صحته . بنوع أننا لا نفهم من تعاليم القرآن شيئا أن غابت عنا تعاليم " الإنجيل العبراني " الذي كان القس يعمل على نقله من لغته العبرانية إلى اللغة العربية . كما أننا لا نفهم من قصص الأنبياء الأقدمين ، و لا من تعاليم التوراة و الإنجيل ، الواردة في القرآن ، أن لم نردها إلى أصلها و المصدر الذي عنه أخذت و قصة يحيى ابن زكريا ، و بشارة الملاك بمولده ، و مولد عيسى ، و معجزاته ، و إنجيله ، و حواريه ، و رسالته ، و كل تعاليمه و أمثاله ، و كيفية موته ... و غيرها ، جميعها لا نفهم منها شيئا إن لم نرجع بها إلى تعاليم القس ورقة و إنجيله العبراني .

و يصعب علينا ، في كل حال ، أن نفهم استمرارية الوحي على الأنبياء ، و أخذ بعضهم عن بعض تعاليمهم و قصصهم و شرائعهم ، لأن لم يكن هناك من يضمن هذه الاستمرارية و هذه التعاليم ، و يكون ، بالتالي ، الواسطة بين الوحي السابق و الوحي اللاحق ، أي بين التوراة و الإنجيل من جهة ، و القرآن العربي من جهة ثانية .

و لسنا نجد في مكة ، في أيام النبي محمد ، غير القس ورقة يلازم محمدا طيلة الأربع و أربعين سنة . و قد يكون في مكة و الحجاز و بلاد الشام غير القس ورقة يعلم الناس و يبشرهم بالإنجيل و يدرّبهم على الشرع النصراني ، إلا أن شرف القس ورقة و نسبه و مقامه و رئاسته على كنيسة مكة و قرابته من النبي و من خديجة و حمسه في دينه و إيمانه و ممارساته الروحية ، كلها تثبت لنا العلاقة المتينة بينه و بين النبي .

الفصل الثاني

القس و النبي فى معترك الحياة

- أولا : القس يزوج النبي
- ثانيا : القس يدرّب النبي
- ثالثا : القس يعلم النبي
- رابعا : القس يعلن النبي خليفته
- خامسا : القس النبي و النبي القس

أولا : القس يزوج النبي

بعدها دخل محمد فى خدمة خديجة ، بالحاح من عمه أبى طالب الذى قال له يومها : يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، و ليس يمدنا

و ما يقومنا ، و لا تجارة (1) ، راح محمد يعمل فى تجارة خديجة بصدق و أمانة ، و راحت هى تدفق عليه الأموال و تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومه (2) ثم أرسلت إليه ذات يوم خادمتها " نفيسة " تفاوضه فى الزواج منها . و روت لنا " نفيسة " قائلة : " فأرسلتنى دسيسا إلى محمد بعد أن رجع فى غيرها من الشام فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به فقلت : فإن كتبت ذلك و دعيت إلى المال و الجمال و الشرف و الكفاية ، ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت : خديجة . قال : و كيف لى بذلك ؟ قلت : بلى . و أنا أفعل . فذهبت فأخبرتها . فأرسلت إليه أن أتت الساعة كذا و كذا " (3) .

و عندما بلغت الساعة الحاسمة ، أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا و أرسل محمد إلى أعمامه فحضروا هم أيضا . و اجتمع الناس . و خطب ولى أمره أبو طالب و قال : " ... و ابن أخى له فى خديجة بين خويلد رغبة ، و لها فيه مثل ذلك " و خطب القس ورقة ولى أمر خديجة و قال : " الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، و فضلنا على ما عدت فنحن سادة العرب و قادتها ، و أنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم فاشهدوا على يا معش قريش " إنى قد زوجت خديجة بين خويلد من محمد بن عبد الله " . و فرح أبو طالب فرحا شديدا ، و قال : " الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب و دفع عنا الغموم " (4) و قال أيضا عن ابن أخيه : " و هو ، و الله ، بعد هذا (الزواج) ، له نبأ عظيم و شأن خطير " (5)

نتوقف عند حدث الزواج هذا لنبدى بعض الملاحظات . فهو حدث خطير و هام فى شأن القس و النبى ، و فى شأن المخطط الذى يتنفذ على يد أبى طالب و خديجة لقد وقع النبى ، على ما يبدو ، وقعة إلهية بين يدي أولياء أمره . و توالى عليه ، بعد حدث الزواج ، الإعلايات الصريحة عن نبوته العتيدة و رسالته المقررة . و لم تبخل علينا كتب السير و الأخبار فيما كان عليه القس و العم و الزوج . لقد كان لكل منهم دوره فيما دبر الله على أيديهم المباركة .

— يلاحظ أولا : مقام القس ورقة فى مكة و فى آل قريش : فهو سيد العرب و قائدهم ، من قوله : " نحن سادة العرب و قادتها " و قد اعتبرته كتب السيرة " رئيس النصارى " و المسؤول عنهم . و نستدل على ذلك من أولويته فى محفل الزواج و من تقدمه على كافة الحاضرين . و القس ، على ما نعلم ، محظوظ بثقة الناس موفور الاحترام .

— يلاحظ ثانيا : أن القس لم يكن حاضرا حفلة الزواج و متقدما على الحاضرين و حسب بل كان محتفلا بالعقد و مكلا فهو الذى أبرم العهد ، و شهد عليه ، و أعلن على الحضور ما جرى . هو المحتفل الأول بالعقد ، أو قل هو " الكاهن " الذى ربط ، باسم الله ، ما لا يحله إنسان ، بحسب تعليم إنجيل الأيوانيين . كاهن نصرانى يبارك الزواج ، فعلى أى دين يكون الزوجان إذن ؟

(1) طبقات ابن سعد (1 / 119 ، 156 ، 168) ، السيرة الحلبية (1 / 147)

(2) السيرة المكية (1 / 118) ، طبقات ابن سعد (1 / 129) ، الحلبية (1 / 147)

(3) طبقات ابن سعد (1 / 131) ، السيرة الحلبية (1 / 152 _ 153)

(4) السيرة الحلبية (1 / 155) ، السيرة المكية (1 / 123)

(5) سيرة ابن هشام (1 / 194)

القس يزوج النبى

— يلاحظ ثالثا : صيغة العقد التى قالها القس على الزوجين و أمام الحضور أنها الصيغة المستعملة عادة عند النصارى مع عناصرها الأساسية لصحة الزواج :

- **العنصر الأول** : وجود القس و أشرافه المباشر اللذان اتضحا في صيغة المتكلم من قول ورقة : " أنى قد زوجت "
- **العنصر الثاني** : رضى الزوجين الذى بدأ أكيدا فى حديث : نفيسة " مع كل من محمد و خديجة ، و فى رضى محمد الذى " ذكر ذلك لأعمامه " بفرح و سرور (6) ، و فى خطبة أبى طالب الذى أعلن " رغبة " ابن أخيه .
- **العنصر الثالث** : وجود شهود عيان من آل قريش و من الأقرباء و الأنسباء .
- **العنصر الرابع** : إعلان القس لعقد الزواج إعلانا صريحا أمام الحاضرين .
- **العنصر الأخير** : استمرارية الزواج الذى ربط بين الزوجين حتى موت أحدهما ، و بالفعل كان ذلك إذ " كانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله و لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت " (7) .
- يلاحظ رابعا : مقاصد القس فيما دبر على يد خديجة . أنه زواج دبره القس و رغب فيه قبل أن ترغب هى . فهو الذى أعلن قبل سواه هذه الرغبة فى قوله : " و رغبنا فى الأتصال بحبلكم و شرفكم " (8) بالرغم من رفض والدها الذى تسأل قائلا : " أنا أزوج يتيم أبى طالب ؟ ! لا لعمري . فقالت له خديجة : ألا تستحى ؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش ؟ فلم تنزل به حتى رضى " (9) . و فى رواية " أن خديجة قالت لمحمد : أذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة فلما جاءها و معه رسول الله قالت له : يا أبا طالب تدخل على عمى (ورقة) فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله . فقال أبو طالب : يا خديجة لا تستهزئى ! فقالت : هذا صنع الله (؟ ؟) فقام فذهب و جاء مع عشرة من قومه إلى عمها (10) . و لن ندرك الآن مقصد القس فى ذلك . لعله ، و هو الأبيونى المذهب يريد الاهتمام باليتيم و الفقير محمد ؟ أو لعله ، و هو قس مكة يريد خليفة له من بعده ؟ أو يدبر قائدا و سيدا على قريش كما كان هو ؟
- يلاحظ خامسا : دخول أبى طالب هو الآخر فى مخطط القس و تدبيره . و هو واضح فى قوله : " و هو (محمد) و الله بعد هذا (الزواج) له نبأ عظيم و شأن خطير " و نحن نسأل : من أين لأبى طالب معرفة المستقبل و استنباط التنبؤات ؟ من أين للعم أن يعرف ما سيكون عليه مصير ابن أخيه ؟ ثم أن أبا طالب رضى أن يزوج محمد الشاب من أرملة لرجلين قبله ، رضى بذلك مسرورا ، فأعلن : " الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب و دفع عنا الغوم " و نسأل : أكان النبى على عمه عالية ، أم أراد العم لأبن أخيه قصاصا ، " و هو الذى يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، و كان لا ينام إلا إلى جنبه ، و كان يحفظه و يحوطه و يعضده و ينصره إلى أن مات " (11) . كيف رضى له ذلك لولا مخطط القس المدبر الذى يعوض على محمد عن الأجحاف العاطفى بقيادة روحية و سيادة زمنية على العرب ؟
- و يلاحظ أخيرا دخول محمد نفسه فى تدبير القس : فتى فى الخامسة و العشرين من عمره يتزوج من امرأة تجاوزت الأربعين ، و أرملة لرجلين قبله و أم لعدة أولاد (12) هذا الشاب ، مهما كان جريئا ، لا يخطر بباله ، و هو الخادم ، أن يتزوج من سيدته التى شفقت به و استخدمته فى تجارتها ، و قد كان قومها حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها و ذكروا لها الأموال فلم تقبل . لن يكون لمحمد ذلك لولا دافع دبر له المناسب . و من يكون هذا الدافع غير القس ؟ فلولا القس لما كان ما كان ، و متى أراد القس شيئا كان .

(6) سيرة ابن هشام (173 / 1) ، السيرة الحلبية (153 / 1)

(7) سيرة ابن هشام (174 / 1)

(8) طبقات ابن سعد (133 / 1) ، سيرة ابن هشام (195 / 1) ، الحلبية (155 / 1)

(9) طبقات ابن سعد (133 _ 131 ، 1)

(10) السيرة الحلبية (154 / 1)

(11) طبقات ابن سعد (121 ، 119 / 1)

ثانيا : القس يدرب النبى

بعد أن ارتبط مصير محمد بمصير خديجة انحلت من مخطط القس عقد كثيرة . لقد وقع النبي في قبضة القس وقعة ألوية . لقد تمت الخطوة الأولى بنجاح . وضع القس خبرته في خدمة نسيبه و أراه مستقبلا غنيا بالأمانى و الآمال . ووضعت ثرية قريش كل ما لها في تنفيذ رغبات ابن عمها . و تعاون الاثنان ، بما لهما من خبرة و دهاء و جاه و مال ، على أعداد النبي للرسالة المقررة . و سار القس به على طريق النجاح المكفول . و النجاح المكفول يصر إليه حثيثا . و الرسالة المهمة تتم بالتدريب المتواصل و التهينة الباطنية . فكان أول ما كان و أهم ما كان الخلوة . و الخلوة فى غار حراء حيث اعتكف جده و ندماء جده و " الحمس " من آل قريش . هناك فى مدة تزيد على الخمس عشرة سنة ، راح القس و النبي يختليان و يصليان و ينقطعان عن الناس و يفكران بالله ، شهرا كاملا من كل سنة . هناك تدرب النبي على يد القس الخبير بشنون الله و الناس .

لم تكن الخلوة بعيدة عن طبع محمد . لقد كان له ذلك منذ صغره ، على حدة شهادة أقرب المقربين إليه . و هى إشارة هامة نحو النجاح . لقد شهدت مرضعته حليلة السعيدية و قالت : " لما ترعرع كان يخرج إلى الصبيان و هم يلعبون فيتجنبهم و لما قرب الزمن الذى أراد الله أن يرسله فيه ازداد محبة فى الخلوة لأن الخلوة يكون فيها فراغ القلب و الانقطاع عن الخلق . فهى تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله . فيصفو و تشرق عليه أنوار المعرفة . فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده . و كان يخلو بغار حراء . فكان يتحنث فيه ، أى يتعبد فيه اللبالي ذوات العدد مع أيامها . (13) . و شهدت عائشة و قالت : " ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، و يتحنث فيه ، و هو التعبد اللبالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله و يتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فينزود لمثلها حتى فجئه الحق و هو فى غار حراء " (14) . و أكدت خديجة ذلك بقولها : " حبب الله إليه الخلوة التى بها يكون فراغ القلب و الانقطاع عن الخلق " (15) .

و لكن ، لم يكن محمد يعرف وحده أهمية الخلوة إعداد للنفس و انقطاعا إلى الله لو لم يتعرف على أناس مارسوها قبله ، و لو لم يتبع فى ذلك سيرة جده و ندماء جده أمثال أبى أمية بن المغيرة و القس ورقة بن نوفل و غيرهما (16) . فعن هؤلاء أخذ محمد الطريقة . و على خطواتهم سار فى تهينة حياته الروحية و رسالته العلنية بين الناس . و قد شهدت السيرة على خلوة محمد و مقوماتها بقولها : " كان رسول الله يجاور فى غار حراء من كل سنة شهرا . و كان ذلك تحنث به قريش فى الجاهلية . (17) ، و بقولها أيضا : " كان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين . فإذا قضى جواره من ذلك الشهر ، كان أول ما يبدا به ، إذا أنصرف من جواره ، الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا ، أو ما شاء الله من ذلك . ثم يرجع إلى بيته . حتى كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته " (18) .

لا نعرف بالحصص مقومات خلوة محمد فى غار حراء ، و لا كيفيتها ، بحسب ما جاء على لسان السراج البلقينى فى شرح البخارى : " لم يجئ فى الأحاديث التى وقفنا عليها كيفية تعبده " (19) . إلا أنها قد وصفت بما وصفت به خلوة عبد المطلب و القس ورقة و غيرهما من قصد حراء للاعتكاف و التعبد و الرياضة الروحية . و فى كتب السيرة وصف لها بما يتفق و التقاليد النصرانية فى ذلك الحين أهمها :

(13) السيرة الحلبية (1 / 257 ، 260)

(14) صحيح المسلم (1 / 78 ، 79) ، صحيح البخارى (1 / 39) ، ابن سعد (1 / 194 ...)

(15) سيرة ابن هشام (1 / 216) ، السيرة الحلبية (1 / 258)

(16) السيرة الحلبية (1 / 259)

(17) سيرة ابن هشام (1 / 218) ، أنظر تفسير الطبرى (2 / 48)

(18) نهاية الأرب (16 / 170) ، ابن هشام (1 / 219) ، الحلبية (1 / 259 ..)

(19) السيرة الحلبية (1 / 259)

القس يدرّب النبي

1 – الزهد و الانقطاع عن الناس . يقومان على ترك ما فى الدنيا من مباح و طيبات ، و اعتبار الدنيا ، بحسب تحديد الغزالي فيما

بعد ، كلا شئ ، طمعا أو رغبة فى لقاء الله بأيد نظيفة من

علائق المادة . و يقوم الحوار في حراء على التخلي عن مجادلات الناس التي لا منفعة فيها ، و الابتعاد عن أهتماماتهم الدنيوية ، لكي يكون كل شئ لديه مدعاة لطلب الحق من الله وحده . كما يقوم على إفراغ القلب من أشغال الدنيا ، و دوام ذكر الله ، فيصفو و تشرق عليه أنوار المعرفة " (20) .

2 – التحنث و التحنف . يقومان على التفكير بالله وحده و التعبد له ، و إقامة أعمال الروح من صلاة و تأمل و تهجد و هذيان روحي و قراءة كلمة الله في كتبه المنزلة ، و سماع تفسيرها من مرشد خبير يساعده في معارجه الروحي ، و الاعتكاف على شرحها و تأويلها و تفصيلها مع من يمكنه ذلك . و لذلك قيل في مواضع تحنث محمد بأنه " كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم " (؟) ، و قيل بشرعية موسى ، و قيل بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله " (21) . و هذا هو المعروف لدى النصارى القانمين على أحكام موسى و عيسى ، أو أحكام التوراة و الإنجيل .

3 – الصيام . قدوة بصوم موسى و أيليا على جبل حوريب و صوم عيسى في برية الأردن و صوم الآباء الأولين ، كان محمد يقضى شهره في الانقطاع عن الأكل أو في أكل وجبة واحدة في اليوم ، و في الاقتصار بهذه الوجبة على المآكل الخفيفة من الأعشاب و الثمار و الألبان و كسر الخبز اليابسة و النباتات التي يلتقطها من الصحراء و يأكلها ، لا للتنعم بطعمها بل لسد جوعه و حاجته الغذائية الماسة إليها . و عرف محمد أنه كان يتزود لصيامه الكعك و اللبن (22) .

4 – أعمال البر و الإحسان . لم تخل خلوة النبي من عمل الحسنه تجاه من يراه بحاجة إليها . لقد كان " يطعم من جاءه من المساكين " (23) ، حتى أن طيور السماء و وحوش الجبال كانت تتنعم بشفقته بها و عطفه عليها . هذه الناحية من حياة محمد كانت تستأثر باهتمامه ، و هو الذي ذاق مرارة البؤس و الحرمان منذ صغره ، و هو الذي تعلم على جده و عمه و نسيبه قس مكة أن يكون شفوفا بالمساكين عطوفا على المحتاجين و سخيا في العطاء . و لا يخفى ما في تعاليمه من حث على عمل الحسنات و الصدقات و الاهتمام بالأرامل و اليتامى و أبناء السبيل ، كما لا يخفى هجومه العنيف على مترفي مكة و أثريائها و " المأ الأعلى " من قبيلة قريش ، و منهم بعض أعمامه كأبي لهب و " أمراته حمالة الحطب " .

5 – شهر رمضان . هو شهر الخلوة و الصيام و الصلاة و التعبد . فيه كان النبي يعتكف في غار حراء ، و فيه كان يحظى بنعم الله ، و فيه كان يتحنث و يتفكر بالله و يتأمل في كتبه المنزلة . أنه شهر الهدى الذي نزل فيه الوحي تلطفا . لقد كان رمضان ، قبل التشريع القرآني ، شهر صيام نصراني ، و قد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله : " كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم " (2 / 183) .

6 – الطواف في البيت . في نهاية شهر الخلوة و الصيام كان ينزل محمد من على جبل حراء و يذهب إلى بيت الله للشكران و الاحتفال بالعيد ، فيطوف بالكعبة سبع مرات ، ثم يرجع إلى بيته و زوجته مطمئنا متما واجبه المقدس . تقول السيرة النبوية : " و كان إذا قضى جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبداً به إذا أنصرف قبل أن يدخل بيته ، الكعبة ، فيطوف بها سبعا ثم يرجع إلى بيته " (24) كما هو حال النصارى ، بعد صيامهم الأربعين ، يحتفلون بعيد الشعانين ، و يطوفون حول كنائسهم سبع مرات . كذا في الأصل .

(20) السيرة الحلبية (1 / 259)

(21) نفس المرجع (1 / 260)

(22) السيرة الحلبية (1 / 259)

(23) سيرة ابن هشام عن ابن اسحق (1 / 219)

(24) سيرة ابن هشام (1 / 211) ، السيرة الحلبية (1 / 260) ، نهاية الأرب (16 / 172)

هذه بعض مقومات خلوة النبي في غار حراء . كلها عادات نصرانية ، لا يمارسها أى إنسان من ذات طبعه ، و لا تكون لأجل غايات دنيوية . كلها من شرع الله الذى أنزل على موسى و عيسى ، أى التى يمارسها اليهود - المنتصرون . و لم يكن بوسع محمد أن يكتشفها وحده لولا إفتداؤه بمن سبقه فى ذلك ، و لولا تدريبه على يد مرشد خبير كالقس ورقة بن نوفل أقرب المقربين إليه .

لقد كانت ممارسات محمد الروحية صعبة ، و أرادها كذلك لوفرة تدينه . و لشدتها عليه كانت تحدث له " إرهاصات كان منها جزعا " ، و تنتابه نوبات عصبية شديدة ، خشى أن يكون الشيطان مسببا لها . و لطالما كانت بوادره ترتجف ، ووجهه يتردد ، و يتصبب منه العرق فى الأيام الباردة ، و يصاب بالإغماء ، و يغط كغطيط البكر ، و يسمع عنده دوى كدوى النحل ، و يطلب من زوجته أن تلفه بثياب دافئة ليذهب عنه الروع (25) . هذه الحالات النفسية الشديدة أرتته ما أرتته من رؤى و أحلام ، ظن نفسه فيها جنيا أو شيطانا . و كانت خديجة تعالجه و تستشير فى أمره ابن عمها القس ورقة (26) .

(25) انظر فى هذا الموضوع ، فى كيفية الوحي و نزوله على النبي و ما كان يحدث له من أهوال : ابن هشام (220 / 1) ، صحيح البخارى (1 / 23 ، 31) ، صحيح مسلم (1 / 98) ، طبقات ابن سعد (198 / 1) ، السيرة الحلبية (1 / 267) ، المكية (1 / 282 ...) و غيرها من مراجع فى السيرة تتفق كلها على ذلك .

(26) ابن هشام (1 / 220 - 223) ، الحلبية (1 / 267) ، المكية (1 / 183) .

ثالثا : القس يعلم النبي

طيلة أربع و أربعين سنة و النبي يلزم القس و يتدرب على يده . و هي المرحلة الهامة من حياة النبي و ممارساته الروحية و تثقيفه الديني . و لا عجب في أن يقوم التثقيف الديني على قراءة الكتاب الذي كان ورقة ينقله من لغته العبرانية إلى العربية ، و يحضر محمد نقله ، و يدرسه ، و يتأمل فيه . و كم من إشارة في القرآن العربي تدل على هذه المهمة الجديدة التي أكتسبها النبي و تلقنها و درسها بشغف الملهوف إلى كلمة الله . و لكي نتأكد من ذلك لابد لنا من إبعاد شبهة تمكنت في عقول المسلمين ، و هي أمية محمد . و تعنى ، في نظرهم ، أن محمد كان يجهل القراءة جهلا تاما . و تمسك المتدينون بهذه الأمية ، قصد الدلالة على حقيقة النبوة ، فيما الحقيقة تدل على أن الله أستعمل وسائل طبيعية لإعلان كلمته ، و استخدم إنسانا خبيراً علم محمدا ما لم يكن يعلم . و ما آية " النبي الأمي " الواردة في القرآن إلا لتعنى شيئا آخر غير الذي يقصده المذهولون .

لذلك فإننا نميز بين أمرين : بين ما كان محمد ، و بين ما كان يعمل و تعلمه بعد حين . أما العلم الذي كان يعمله فهو علم القراءة و الكتابة الذي أكتسبه في صغره ، و على ذلك أدلة . و أما العلم الذي كان يجهله ثم تعلمه فهو علم الكتاب المنزل ، أى علم الإلهيات و الروحانيات و التشريع ، و هو العلم الذي أكتسبه محمد من " لدن خبير حكيم " (1 / 11) ، و ممن " عنده علم الكتاب " ، و " من الراسخين في العلم " . و نسمى العلم الذي يعلمه " العلم الطبيعي " ، و العلم الذي أكتسبه فيما بعد " العلم الإلهي " . و كلا العلمين مكتسب .

أولا : العلم الطبيعي :

كان محمد تعلمه منذ صباه ، و هو في حماية جده و كفالة عمه . قد أراد المتدينون إنكاره عليه ، قصد الدلالة على تدخل الله المباشر في النبوة ، و قصد إظهار جدة القرآن و الإسلام ، و اعتبار كل شئ فيه من لدن الله . و على هذا العلم أدلة :

1 - أن " الأمي " بحسب القرآن هو من ليس له كتاب منزل . فاليهود ، أبناء أسحق بن إبراهيم ، هم " كتابيون " ، في حين أن العرب ، أبناء إسماعيل بن إبراهيم ، هم " أميون " و دل القرآن على هذا التمييز دلالة واضحة و صريحة : فهو يدعو الكتابيين و الأميين إلى إتباع الإسلام ك " قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أسلمتم ؟ " (20 / 3) ، و هو يشير إلى تمنى الأميين معرفة الكتاب : " و منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني " (78 / 2) . و يفتخر بأن بعثه الله رسولا من غير الكتابيين فيقول : " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم " (7 / 62) . و قد عرف أهل الكتاب بأن التمييز بينهم و بين الأميين شئ محتوم ، ف " قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل " (3 / 75) ... بهذا المعنى القرآني الصحيح يجب أن نفهم قول الكتاب عن أمية محمد في الآيتين التاليتين : " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي " (157 / 7) و " أمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله " (158 / 7) فالأميون إذن هم العرب أبناء إسماعيل و الكتابيون هم اليهود أبناء أسحق . و بالتالي إن أمية محمد لا تعنى جهله القراءة و الكتابة بقدر ما تعنى انتماءه للعرب الأميين أبناء إسماعيل الذين ليس لهم من الله كتاب منزل .

2 – و الدليل الثاني من دعوة جبريل للنبي في السورة الأولى من تاريخ نزول القرآن . فيها يدعو الملاك محمدا قائلا : " اقرأ باسم الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ و ربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم " (96 / - 5) و أجمعت كتب " تفسير القرآن " و كتب " أسباب النزول " ، و كتب السيرة النبوية و الأخبار و الأحاديث و الصحيح و الباحثون المسلمون و المستشرقون على أن هذه السورة هي الأولى في تاريخ الوحي . و اتفق الجميع على أن جبريل جاء محمدا يحمل إليه كتابا و يدفعه إليه ليقرأه ... فلولا معرفة محمد بالقراءة ، و لولا صحة تاريخها ، و صحة ما جاء فيها ، لما اتفق الجميع على سرد الواقعة . و لئن كان الله " يمكر " بالناس ، و هو " خير الماكرين " (27) ، أقيمكر أيضا بنبيه ، و بنبيه ، و يكلفه شيئا لا يستطيعه !!!!

3 – إن العلم الطبيعي الذى تعلمه محمد ، لا بد أنه تعلمه و هو فى بيت عمه أبى طالب و تحت حمايته . لقد قيل عن أبى طالب فى حبه لأبن أخيه : لقد " أخصه بفضل و احترام و تقدير . و ظل فوق أربعين سنة يعز جانبه و يبسط عليه حمايته " (28) . و " كان يحبه حبا شديدا لا يحبه لأحد من ولده . و كان لا ينام إلا إلى جنبه ، و يخرج فيخرج معه . و صب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشئ قط ، و كان يخصه بأحسن الطعام " (29) . و " كان أبو طالب يحفظه و يحوطه و يعضده و ينصره إلى أن مات " (30) ... هذه العناية الجليلة اقتضت من أبى طالب اهتماما بالغا بشؤون ابن أخيه اليتيم الذى حظى به ابن عمه على صاحب البلاغة المأثورة و منتهج نهجا فى " نهج البلاغة " . و لا يعقل أن يمنع أبو طالب عن ابن أخيه ما تمتع به أبنه و تنعم و أبدع فى مجالاته . و لئن فرق المتدينون بين ربيبي أبى طالب فلغاية فى النفس لا مبرر لها سوى إظهار حقيقة النبوة فى كل شئ فأبى طالب لم يكفل محمدا ليوفر له حاجاته المادية و حسب ، بل وفر له أيضا و قبل كل شئ ما وفره لأبنه من علم و تربية و أخلاق ...

4 – مهما تعددت تأويلات لفظة " قرأ " الواردة فى أمكنة عديدة من القرآن ، فإن المقصود منها القراءة الكتابية ، أى قراءة الكتاب . و الآيات التى تدل على معرفة محمد بالقراءة كثيرة نذكر منها : " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله م الشيطان " (16 / 98) ، و " إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " (17 / 45) ، و " قرانا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " (17 / 106) ، " اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " (17 / 14) ... هذه الآيات و غيرها تفيدنا أن محمدا كان يعرف القراءة و يجيدها ، و كان يقرأ الكتاب الذى بين يديه ، فكانت قراءته له " قرأنا " .

ثانيا : العلم الإلهي :

أما العلم الذى كان محمد يجهله فهو الذى تكفل القس بإعطائه لتلميذه الروحي ، هو علم الكتاب المنزل الذى كان القس ينقله فى حضور محمد طيلة أربع و أربعين سنة . هذا العلم " درسه " النبي على القس و فى الإنجيل العبرانى . و " لفظة درس فى القرآن مقصورة على دراسة الكتب المقدسة " (31) . بهذا الدرس تحدى محمد و تابعوه المجرمين الذين لا يستطيعون لا الحكم و لا الخيار لأن ليس لهم كتاب فيه تدرسون ؟ أن لكم فيه لما تخيرون " (67 / 35 - 38) . و لئن أنهم الدارسون فى الكتاب محمدا بأنه لا يأتيهم شيئا جديدا ، فإن تهمتهم ترد عليهم ، لأنه يعمل على تصريف الآيات و تبينها و تيسيرها فقط : " و كذلك نصرنا الآيات و ليقولوا درست و لنبيه لقوم يعلمون " (6 / 105) .

و كان محمد أحسن من درس و تعلم من العرب الكتاب الذى بعثه الله إليه : " و إذ تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا ... إن هذا إلا سحر مبين . و ما آتيناهم من كتب يدرسونها و ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " (44 / 34) . و الذين درسوا فى الكتاب الذى درس فيه محمد عليهم ميثاق إلا يقولوا الحق : " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق و درسوا فيه " (169 / 7) . لذلك عليهم أن يعلنوا ما درسوا كما هو يعلن ، و يعلنون : " كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون " (79 / 3) كالفرسين الذين أتهمهم المسيح بأنهم " يقولون ما لا يعملون " (32) . فعلم محمد للكتاب و درس ما فيه و قراءة أخباره ، و تفصيل آياته و تبينها ، كلها كانت له زادا ليحاجج الناس الذين يجادلون " فى الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير " (8 / 22 ، 20 / 31)

النتيجة من كل هذه الأدلة تحسم بمعرفة محمد للقراءة و العلم الطبيعى ، و قد حصلهما منذ صباه ، بطريقة الدرس و الاكتساب ، لا بالحدس و الإلهام الربانى . و معرفة محمد بهذا العلم لا تقلل من دوره الرسولى ، لأن الله ، إذا ما أختار إنسانا ما لرسالة ما ، وفر له المعطيات البشرية المناسبة لأداء هذه الرسالة . و ما إشارة القرآن إلى تعلم محمد " علم ما لا يعلم " سوى علم ما لا يعلم من الكتاب المنزل . و هذا العلم هو أيضا لم يكن حدسا و إلهاما ما بقدر ما كان تعلما و اكتسابا من " الذين يقرؤون الكتاب من قبل " (10 / 94) . و ما رد محمد التهمة عنه إلا دليل آخر على ما تعلمه من أهل الكتاب : " و لقد نعمل أنما يعلمه بشر " (16 / 103) ، فرد بقوله : " لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . و هذا لسان عربى مبين " (16 / 103) . و قد أترف بذلك عندما قال بأنه لا يعلم الغيب و لا عنده خزائن علم الله : " قل لا أقول لكم عندى خزائن الله و لا أعلم الغيب " (6 / 50 ، 7 / 188) .

و يشهد على علم محمد بالكتاب جملة شهود : الله ، و الملائكة ، و أهل الكتاب . و ردد القرآن العربى هذه الشهادات فيه : " قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم و من عنده علم الكتاب " (13 / 43) ، " شهد الله و الملائكة ... و أولو العلم " (3 / 18) ، " شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله " (أى على مثل القرآن) (46 / 10) ، " يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و أنتم تشهدون ! " (3 / 70) ، " أنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الأخبار بما أستحفظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء " (5 / 44) ...

و يوم يرتاب محمد من علمه و من وحى الله فما عليه إلا أن يسأل أهل الكتاب و يستشروهم : " أن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك " (10 / 94) . و عندما يشك أتباعه من صحة علمه و وحيه ينصحهم بأن يذهبوا إلى أهل الكتاب و يسألوهم : " اسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون " (16 / 43 ، 21 / 7) . و ما القرآن أخيرا إلا تبيان لما أنزل من قبل : " و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " (16 / 44) . و من جملة من " عنده علم الكتاب " و شهد شهادة حق فى القرآن و نبيه ، هو القس ورقة بن نوفل ، أقرب المقربين إليه و إلى زوجته . و قد شهدت عائشة بدور ورقة فى قولها : " و لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحى " .

(32) إنجيل القديس متى (3 / 23)

رابعا : القس يعلن النبى خليفته

لم يخف القس مقاصده فيما دبر لمحمد منذ أن تعرف عليه . و لم يخف كتب السيرة مقاصد القس هذه . لقد أدركوها ، و عرفوا ما أدركوا ، و حاولوا تجنب خطره . و ما تجنبوه كان إثباتا خطيرا لما نبحت عنه . لقد حاولوا إثبات نبوة محمد ، فيما هم فى الحقيقة يثبتون نبوة القس . حاولوا إرجاع كل شئ إلى الله ، و هم فى الواقع يثقون بقدرة القس ثقة عمياء . بحثوا فى علاقة محمد بالله ، فإذا هم يعلقون محمد بالقس ... و أنت تدرك ذلك عندما تسمع تنبؤات القس على مستقبل محمد تظن أن كتابة السيرة يطلقون ذلك للدلالة على قدرة القس و دوره الخطير ، فيما هم يظنون التدليل على نبوة محمد .

و لا غرابة فى الأمر ، فإن كل شئ قد أعد إلى الآن على أحسن حال ، و القس قدير على كل شئ فى كل حال . و للناس ثقة بقدرة القس ، أى قس ، مما يثبت كل مخطط يرسمه ، و ينفذ كل قصد يعزم على تحقيقه . و قد تيسر له ذلك بسهولة ، لاعتبارات عديدة : منها مقامه الوجيه و شرفه الوسيم بين الناس ، فهو من " سادة العرب و قادتها " ، و منها رئاسته على جماعة مكة ، فهو " رئيس النصارى " ، و منها علمه الواسع بالكتب و الأمور الإلهية ، فهو " يتتبع الكتب من أهلها " ، و منها انقياد الناس له و لأمثاله من القسيسين و الرهبان ، فهم " لا يستكبرون " (82 / 5) ، و اتخذهم الناس " أربابا من دون الله " (31 / 9) ، و منها أخيرا سعى أصحاب الحاجة إليهم و طلب نصائحهم ، و الالتجاء إلى صوامعهم ، و التماس الشفاء من أيديهم ، و استطاعتهم فى اكتشاف الغيب و استطلاع الأسرار الخفية ... و استغل القس ورقة اعتبارات الناس هذه ، و راح يدبر له خليفة يخلفه فى مهمته ، فكان محمد بن عبد الله خير من دبر . و أشرك فى تدبيره هذا أقرب المقربين إليه و إلى النبى . فكان ما أراد . و متى أراد القس شيئا كان ، و القس قدير على أى شئ كان . أما الذين تعاونوا مع القس و سمعوا نداءه و ذهلوا بتدبيره فأهمهم و أولهم خديجة زوج النبى ، و أبو طالب عمه و كفيله ، و أبو بكر الصديق صديقه الحميم ، و والد خديجة بعد رضاه ، و أخوها عمرو ، و غيرهم كثير . كلهم انصاعوا لتدابير الله على يد قسه و وكيله فى مكة ، و اتخذوا فيما دبر . و بارك الراهب بحيرا و الراهب عداس النينوى و سلمان الفارسى هذا التدبير (33) . و ساعدوا القس فيما أراد ، فتوالت التنبؤات عن مستقبل محمد من كل جانب ، على أسنة السحرة و كهان ، و الأتس و الجن ، و الشجر و الحجر ، و الحيوانات على أنواعها ، و الملوك و الأخبار ، و الملائكة و البشر ... و لم تبخل كتب السيرة و الأخبار عن ذكر الكثير منها . و البعض مما ذكر ينبئ عن الكثير مما حدث . و ما كنا ندرى شيئا مما حدث لولا القس يفسر لنا ما حدث . و استمرت الإعلانات تتوالى طيلة خمس عشرة سنة . و أهمها أتى فى ست مراحل هامة من حياة النبى و رسالته :

الإعلان الأول : قبل الزواج :

قبل أن تم مراسيم الزواج بين محمد و خديجة ، و فيما كان محمد يتاجر لها فى بلاد الشام ، رجع ميسرة غلامها الأمين يخبرها بما رأى و بما سمع من مدهلات جرت لمحمد (34) . و لما أنتهى م حديثه ، قامت خديجة للحال ، و أتت مسرعة تخبر ابن عمها ورقة ما سمعته من غلامها عن محمد . و للوقت وقف القس باطمئنان العارف بمشيئة الله يقول : " لئن كان هذا حقا ، يا خديجة ، فإن محمدا لنبى هذه الأمة . و قد عرفت (؟) أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه (35)

(33) السيرة المكية (183 / 1) ، السيرة الحلبية (367 / 1)

(34) ابن هشام (175 / 1) ، الكامل فى التاريخ (39 / 2) ، الحلبية (147 / 1 - 152)

(35) سيرة ابن هشام (175 / 1 - 177) ، السيرة الحلبية (151 / 1)

لا بد لنا أن نسأل ، لا عن حقيقة نبوة محمد ، بل عن حقيقة نبوة ورقة : يدركون الغيب و مستقبلات الناس و لم يعد لهم اليوم ذلك ؟ ! أم أنهم يمكرون كما الله " خير الماكرين " (36) ؟ من أين لكتابة السيرة أن يعرفوا تدابير القس و تنبؤاته لو لم يكن لهم علم بأن الله يعلن عن أنبيائه بواسطة إنسان خبير بمقاصده الإلهية ؟ و فى كل حال ، لقد عرفت خديجة أن تستسلم لتدابير ابن عمها فيما أراد ، و هى التى كانت تسترشد بأرائه ، على حد قول صاحب السيرة : " كان ذلك لخديجة بإرشاد من ورقة " (37) .

الإعلان الثانى : فى بدء الوحى :

لما كان محمد فى غار حراء يتحنث و يصوم و يصلى و يتفكر بالله ، و قد بلغ الأربعين ، أتاه جبريل آخر الشهر يعلن له : " أبشر يا محمد ، أنا جبريل و أنت رسول الله لهذه الأمة " و دفع إليه كتابا يقرأه فاعتري محمدا ذهول " ثم أنصرف عنه الملك . و رجع المرتاض قافلا إلى بيته يحدث زوجته بما سمع و رأى و للحال أعلنت خديجة ، هى الأخرى العارفة بمشينة الله : " أبشر يا ابن عمى و أبت فالذى نفس خديجة بيده أنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة " ثم قامت و جمعت عليها ثيابها و انطلقت إلى ورقة تخبره ما حدث لزوجها . و قبل أن تستكمل حديثها أعلن ورقة مطمئنا و قال : " قدوس قدوس ، و الذى نفس ورقة بيده ، لنن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى . و أنه لنبى هذه الأمة " فقولى له فليثبت " (38) .

لقد تكاثرت الشهادات على نبوة محمد ، من الأرض و من السماء : من جبريل و من خديجة و من القس ورقة . و فى مضمونها و مقصودها واحدة . الكل يفسر الرؤيا تفسيرا واحدا . و الكل ينصح صاحبها بالثبات و الاستمرار فيما هو عليه . و الكل يعلن نبوته العتيدة فى الأمة العربية البكر . فهو على خط موسى و عيسى ، سيأتى بناموس للأمين ، كما أتى موسى و عيسى بناموس للكتابين . و لن يكون بين ما سيكون للعرب و بين ما هو لبنى إسرائيل فرق . الناموس هو إياه . و ليس لمحمد إلا أن يعلنه و يكون له رسولا و بشيرا و مبلغا و لكن ، لا بد أن نسأل ، لا عن نبوة محمد ، بل عن نبوة خديجة ، التى أعلنت لزوجها نبوته ، و التى عرفت مشينة الله ، و فسرت الرؤيا كعليمة بأسرار الغيب . فمن أين لها ذلك ؟ أمن الله أم من ابن عمها ؟ الله أعلم .

الإعلان الثالث : فى بدء الرسالة :

لما نزل محمد من على جبل الخلوة و الصلاة ، فى نهاية شهر رمضان ، أتى الكعبة ليطوف بها سبع مرات ، قبل أن يرجع إلى بيته و زوجته بحسب عادته كل مرة . و فيما هو يطوف كان القس يطوف أيضا . و بادره القس بالسؤال : " يا ابن أخى ، أخبرنى بما رأيت و سمعت . فأخبره رسول الله " فأعلن القس ، باطمئنان العارف بمشينة الله ، و قال : " و الذى نفسى بيده ، أنك لنبى هذه الأمة . و لقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى و لتكذبه و لتؤذينه و لنخرجه و لنقاتله و لنن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرنا يعلمه " ثم أدنى رأسه منه و قبل بأفوجة . ثم أنصرف محمد إلى منزله مطمئنا " (39) .

(36) القرآن (3 / 54 ، 27 / 50 ، 14 / 46 ، 8 / 30 ، 10 / 21)

(37) السيرة الحلبية (1 / 275)

(38) ابن هشام (1 / 221) ، الحلبية (1 / 262) ، ابن سعد (1 / 195)

(39) ابن هشام (1 / 222) ، تفسير الطبرى (2 / 49) ، الحلبية (1 / 263)

هذا هو الاطمئنان المطلوب ، الذى حصل عليه محمد ، و الذى كان يتمناه من ورقة . و هذا هو الاطمئنان الذى يطلب من القس توفيره لرعيته . و هذا هو النصر الذى حاز عليه القس ورقة فى تدبير خليفة له على جماعة مكة . و المطلوب الآن من محمد ، لا أن " يثبت " و حسب ، بل أن يكون " مطمئنا " أيضا . و متى بلغت الطمأنينة قلب محمد ، استطاع القس أن يعلن : " لأنصرن الله نصرًا يعلمه " . و استحق الشاب الوديع قبلة من القس على رأسه . بهذه الطمأنينة التى حاز عليها محمد ، بشر فى رسالته العتيدة عندما قال : " بذكر الله تظمن القلوب " (28 / 13) ، و " ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتظمن قلوبكم به " (10 / 8 ، 126 / 3) ، و " قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . و لكن ليظمن قلبى " (260 / 2) . بهذه السكينة الباطنية أيد الله محمداً و جماعته : " فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنوده " (40 / 9 ، 4 / 48) ، و " أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين " (26 / 48 ، 18 ، 26 / 9) . و هكذا أنتصر القس نصرًا من عند الله بنصر تلميذه : " و ينصرك الله نصرًا عزيزًا " (3 / 8) ...

الإعلان الرابع : عند نزول الوحي :

بعد هذا النصر أطلق محمد برفقة أبى بكر غلى القس ورقة طالبا منه تفسير ما يعرض له من نوبات و إغماءات و إرهاصات . فهو لا يدرى من أين هى ، و ممن هى ، و ما معانيها . و أخبره مسترشدا : " إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ، يا محمد . فأتطلق هاربا إلى الأرض و راح القس يرشده ، و ينصحه ، و يهدئ من روعه و يظمن نفسه فى قوله : " لا تفعل إذا أتاك . فأثبت حتى تسمع ما يقول ثم انتنى " (40)

و رجع النبى قافلا إلى بيته ، و رجعت عليه الرؤى ، و اضطربت نفسه ، و كثرت الإغماءات ، و تعددت النوبات العصبية . ثم يعود إلى مرشده يسأله عن سبب اضطراباته هذه : أهى " أضغاث أحلام " (41) يأتى بها الشيطان ؟ أم هى " جنة " (42) فى العقل يسببها عفريت من الجن ؟ أم هى " سحر " (43) ساحر يسحره ؟ أم إلهامات شعرية ل " شاعر " ملهم (44) ؟ أم " كهانة " (45) كاهن يبتغى معرفة خزائن الله و علم الغيب ؟ أم أخيرا هى إلهامات ربانية و رؤى إلهية و وحى منزل كانت تجنيه كما كانت تجئ أنبياء الله فى العهد القديم ؟

لم تتوان خديجة عن البحث و الاستشارات لتهدئ من روع زوجها . فقد كانت تذهب به إلى القس ورقة تارة ، و إلى عداس النينوى طورا . و أمت يوما هذا الأخير تخبره عما يجرى لبعها ، فقال لها ذات مرة : " يا خديجة ، أن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أمورا . فخذى كتابى هذا و انطلقى به إلى صاحبك . فإن كان مجنونا ، فإنه سيذهب عنه ، و إن كان من الله فلن يضره . فأنطلقت بالكتاب معها " ، و رجعت إلى زوجها (46) .

(40) السيرة الحلبية (263 / 1)

(41) القرآن (44 / 12 ، 5 / 21)

(42) القرآن (184 / 7 ، 25 / 23 ، 8 / 34 ، 151 / 37)

(43) القرآن (13 / 27 ، 7 / 11 ، 76 / 10 ، 7 / 6)

(44) القرآن (30 / 52 ، 37 / 27 ، 5 / 21 ، 69 / 36)

(45) القرآن (188 / 7 ، 50 / 6 ، 42 / 69 ، 29 / 52)

(46) القرآن (السيرة الحلبية) (267 / 1) ، المكية (183 / 1)

و مما يذكر أن مثل هذه الحالات من الإغماء كان يعتريه قبل الوحي و البعثة ، و كان يرقى من العين كل مرة . و روى لنا ابن أسحق عن شيوخه هذا الحديث بقوله : " أنه " اى محمد " كان يرقى م العين ، و هو بمكة ، قبل أن ينزل عليه القرآن فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك " (47) . و كانت خديجة تقول له باستمرار : " أوجه إليك من يرفيك ؟ " و يضيف ابن اسحق : " لم أقف على من كان يرقيه و لا على ما كان يرقى به " (48) . و محمد نفسه كان يتخوف من حالاته هذه ، و كان يردد مرارا : " لقد خشيت على نفسى " (49) ، و " أخشى أن أكون كاهنا " (50) ، و " أخشى أن يكون فى جنن " (51) ، و " أخشى أن يكون بى لمة " (52) ... و مع هذا ، لا نزال نحن نؤمن بتلك الطمأنينة التى أيد بها القس محمدا ، راجين أن نكون عليها فى مطلق الأحوال .

الإعلان الخامس : بعد بدء الرسالة :

ثبت النبى على نصيحة القس و اطمأن . و راح يبياشر مهمته الرسولية و ينذر . و ابتدأ يعلن للناس بعض ما نزل عليه من سور القرآن بلسان عربى مبين . و لكنه لم يتمكن من حمل عبء الرسالة الملقاة على عاتقه ، فراح يضطرب من جديد . ففيما هو مرة يقرأ و ينذر و يتوعد ، أخذت بوادره ترتجف ، ووجهه يتردد ، و تنتابه الخشية . فرجع إلى بيته مذعورا و دخل على خديجة يقول لها : " زملونى زملونى " (53) ، أى لففونى بالثياب الدافئة . فسارعت خديجة و زملته حتى ذهب عنه الروع فزال عنه الكرب و ارتاحت أعصابه . و طلبت منه أن يخبرها خبر ما جرى . فأخبرها . و قالت له للحال قول العارف بالأمور و مجريات الأحداث : " كلا . أبشر . فوالله ، لا يخزيك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، و تصدق الحديث ، و تحمل الكل لغيرك ، و تكسب المعدوم ، و تقرى الضيف ، و تعين على نواب الحق ... " (54) و أرادت خديجة أن تثبت مما تقول و أن تؤكد لزوجها حجتها . فانطلقت به كالمعتاد إلى ابن عمها ورقة تقول له : " أى عم ، اسمع من ابن أخيك : و استوضح ورقة محمدا : " يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ " فأخبره خبر ما رأى . فأسكن القس روعه مجددا ، و راح يردد عليه قوله المعتاد : " هذا الناموس الذى أنزل على موسى " . و يضيف هذه المرة : " يا ليتنى فيها جذع و أكون فى زمن الدعوة " ثم التفت ورقة إلى خديجة يقول : " نعم . لم يأت رجل بما جنت . ألا عودى " (55) و عادت خديجة ماسكة بيد زوجها و الطمأنينة فى نفسيهما . و أبلغنا القس عن تمنياتى بعدما تحقق اليسير منها .

الإعلان السادس : عند بدء الجهاد :

عن على بن أبى طالب : ((لما سمع محمد النداء : " قل أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله " . قال محمد : " لبيك " . ثم قال : قل الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)) . لما سمع محمد ذلك اضطرب و قام و أتى القس و ذكر له ما سمع . فقال ورقة : " أبشر ثم أبشر . فإنى أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم . فإنك على مثل ناموس موسى . و أنك نبى مرسل . و أنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك . و لنن أدركنى ذلك لأجاهدن معك " (56) .

(52) السيرة الحلبية (1 / 136)

(47) السيرة الحلبية (1 / 275 _ 276)

(53) ابن سعد (1 / 195) ، الطبرى (2 / 48) . أنظر فى القرآن سورتي " المزمل و المدثر " .

(48) نفس المرجع (1 / 276)

(54) صحيح مسلم (1 / 97 _ 98) ، السيرة الحلبية (1 / 267)

(49) نفس المرجع (1 / 276)

(55) السيرة الحلبية (1 / 263 ، 267)

(50) صحيح البخارى (1 / 18) ، صحيح مسلم (1 / 97)

(56) نفس المرجع (1 / 269)

(51) طبقات ابن سعد (1 / 195) ، الحلبية (1 / 258)

يبدو أن الإعلان أطلقه القس بعدما أمر محمد بالجهاد ، أى بعد مضي زمن غير يسير على بدء الرسالة ، قد يتراوح بين السنتين و الثلاث سنين ، عندما أصبح القس عاجزا ضريرا أصم . و فى هذا الإعلان اطمئنان آخر لمحمد بأنه لن يكون وحده فى جهاده ضد المنافقين من قريش فالقس إلى جانبه ، رغم كبر سنه ، يرشده ، و يعضده ، و ينصحه بالألا يستعجل الأمور ، لأن المهم فى سبيل الحصول على النجاح الصبر و عدم العجلة ، و هى نصيحة ثمينة ذكره بها القرآن فيما بعد : " أصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . و لا تستعجل " (15 / 46) . و على محمد أن ينتصح ، و ألا يترك الرسالة الملقاة على عاتقه ، مهما ضاق بها صدره : " لعلك تارك بعض ما يوحى إليك و ضائق به صدرك ! " (12 / 11) . فإن الله لن يترك نبيه بغير عضد و لن ينساه أو يودعه : " ما ودعك ربك و ما قلى " (3 / 93) . و على محمد أيضا ألا ينسى ما يقرأ عليه من الكتاب : " سنقرنك فلا تنسى " (6 / 87) .

و هكذا صار . و ما كان صار لولا رحمة الله التى دبرت كل شئ على أحسن حال . و لئن صح ما جاء فى الأخبار أم لم يصح فإن روايات السيرة النبوية ، و تسلسل الأحداث ، و شهادة القرآن لها ، و الوساطة الطبيعية التى يستخدمها الله لإعلان كلمته و تبليغها ، يؤكد لنا وقوع محمد وقعة إلهية فى مخطط القس ورقة و تدابيره بتنفيذ من خديجة سيدة نساء قريش التى وفرت له " المال و الجاه و الشرف و الجمال و الكفاية و الحنان " .

لقد دبر القس كل شئ و نفذت خديجة كل شئ على أكمل وجه فهى التى كانت تسعى بين القس و النبى . تسمع النبى و تشجعه ، و تذهب إلى القس و تسترشه . و يكفى أن يقال عنها " أن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة " (57) . ورقة و خديجة و أبو طالب لعبوا فى حياة محمد و رسالته دورا كبيرا لا ريب فيه . و بموتهم فقد محمد العضد و السند و المرشد و المنعة و الحنان .

بموت القس ورقة " فتر الوحى " (58) . و بموت خديجة " تتابعت على رسول الله المصائب ، إذ كانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها " (59) . هى التى " آمنت به ، و صدقت بما جاءه من الله ، و وازرته على أمره ، و كانت أول من آمن بالله و برسوله ، و صدق بما جاء منه . فخفف الله بذلك عن نبيه ، لا يسمع شيئا مما يكرهه . من رد عليه و تكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها . تثبتت و تخفف عليه و تصدقه و تهون عليه أمر الناس " (60) .

و بموت أبى طالب " نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ... إذ كان أبو طالب لبى أخيه عضدا و حرزا فى أمره و منعة و نصرا على قومه " (61) .

القس دبر . و الزوجة نفذت . و العم عضد . و النبى استسلم لإرادة الله . على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة . فكان لها النجاح . و هذا أيضا كان من الله . و يعود إلى الله . و الحقيقة تقال أن الله ، إذا ما أراد اختيار أنبيائه ، يهيب لهم الظروف المناسبة ليكفل لهم النجاح فى مهماتهم الصعبة .

(57) السيرة الحلبية (1 / 275)

(58) صحيح البخارى بشرح الكرمانى (1 / 38)

(59) سيرة ابن هشام (2 / 45)

(60) نفس المرجع (1 / 224)

(61) نفس المرجع (2 / 45 - 46)

خامسا : القس النبي و النبي القس

نسال : ماذا كان في نية القس أن يعلن ؟ نبوة محمد أم قسوسيته ؟ لقد استترت نية القس على كتبة السيرة . و لا يعود استتارها إلى سوء نية عندهم بقدر ما يعود إلى نقل ما وصل إليهم منحولا بعد حوالي مائة و خمسين عاما من بدء الرسالة و توسعها في معظم البلاد الآسيوية و الأفريقية . لقد بلغهم بعض ما قام به القس من دور في نبوة محمد ، و لكنهم لم يحققوا فيما بلغهم ، و لم يدركوا بالتالي نيته ، و لم يعرفوا كيف تعلن النبوة و لا كيف تنتقل القسوسية في النصرانية من سلف إلى خلف ، و لم يعلموا أن النبوة لا تحتاج إلى من يدافع عنها و يقضى بصحتها ... و لو علموا كل ذلك لما اضطروا إلى إثبات نبوة محمد بألف و ألف دليل ، و الدفاع عنها بألف حجة . و لخوفهم من ألا يكون محمد نبيا أرجعوا الأدلة عليه إلى زمن آدم ، و قرأوا اسمه في السماء تحت سدرة المنتهى ، و سمعوا الأخبار و الرهبان و الكهنة و السحرة و الجن و الشياطين و الحيوانات و الأصنام و الأشجار و الحجارة ... تعلن نبوته ، و رأوا اسمه في التوراة و الإنجيل ، و استرقوا أخباره عند ملوك العجم و العرب ... كل هذا كان لأجل الدفاع عن نبوة محمد . و هل يحتاج نبي الله إلى من يبرر له نبوته و يدافع عنها ؟

و من جهة ثانية ، من أين للقس أن يعلن محمدا نبيا ، فيشارك معه خديجة و أبا طالب و أبا بكر و عليا ؟ هل القس هو الذي أطلق على محمد أسم نبي ؟ أم تبدلت الأسماء فيما بعد ، و تحرفت المعاني ، و تغيرت النوايا ، و استبدت الأحداث السياسية بالأمور الدينية ؟ لننصح إعلان القس لنبوة محمد يكون القس مخبولا حقا ، و يكون النبي ، فيما صدق من القس ، صاحب جنة و غرور . وحده الله يختار أنبياءه ، و وحده النبي يعرف على نبوته ، و تعاليمه تعلن عنها ، و أعماله تدعم تعاليمه . و ما من نبي في التاريخ احتاج إلى الدفاع عن نبوته كما هو الأمر مع محمد . و الحقيقة أن القرآن المكي لا يسمى محمدا نبيا ، بل " بشيرا " و " نذيرا " و " مبلغا رسالة ربه " . و هو ما يؤكد لنا أنه لا القس و لا النبي استمتعا بالنبوة ، بحسب مفهومها في العهد القديم . فماذا يكون الأمر إذن ؟

في ظني أن نية القس كانت غير ذلك ، ووعى محمد كان هو الآخر ، في بدء أمره ، غير ادعاء النبوة . و الذي بدل المقاصد و النوايا هو " مصحف عثمان " و كتبة السيرة . و كان قصد القس أن يعلن محمدا خليفته على جماعة مكة النصرانية . و أدلتنا على ذلك من سيرة القس و النبي بتمامها و كمالها . فالقس اختار محمدا و تبناه ، ثم زوجه من خديجة ، على الطريقة النصرانية ، و دربه على الصوم و الصلاة في غار حراء ، و علمه التوراة و الإنجيل ، و ناموس موسى و عيسى ، و نقل له الإنجيل العبراني بلسان عربي مبين . و قد وعى محمد اختياره هذا ، و عرف مهمته ، فراح ينذر الناس و يبشرهم ، و يتقهم ، و يعلمهم ما لا يعلمون من الكتاب ، و يبين لهم الصراط المستقيم ، و يهديهم إلى " الدين القيم " ، و يعظ فيهم عن أحوال الحساب و العقاب و الجنة و النار و القيامة ، و يحرضهم على فعل الحسنات و الصدقات ، و يقرأ عليهم ما تيسر من قصص الكتاب و أخبار الأنبياء . لقد كان يعلم أن مهمته تقوم على أن يذكر الناس بتعاليم التوراة و الإنجيل : " ذكر إنما أنت مذكر " ، و كتابه هو " ذكر ، و ذكرى ، و تذكرة " و " تفصيل " و " تصديق " للكتاب العبراني الذي كان بين يدي القس و يحضر محمد تعريبه طيلة أربع و أربعين سنة .

لقد أراد القس أن يكون محمد خليفته له على نصارى مكة ، يكمل عمله الروحي بين العرب ، و يحافظ على استمرارية النصرانية في الحجاز ، و يعمل على جمع شمل النصارى من بنى إسرائيل ، و يوحد شيعهم و أحزابهم ، و يوحد كتبهم و عقيدتهم ... فكان له ذلك بما أوتى من تجرد و ذكاء و جرأة و إقدام . و ساعده على إتمام مهمته امرأته خديجة بما كان لها من شرف و جاه و مال ، و أعانه أبو طالب عمه الوفي ، و لبي الدعوة " الحمس من قريش ، و جاهد معه فقراء مكة و " أدلتها " ، و استضافه النجاشي ملك الحبشة بعدما قاومه " الملأ الأعلى " و " أعزة مكة " ... حتى أصبح محمد ، بعد وفاة القس " رئيس النصارى " الموحدين ، و أول المؤمنين ، أي زعيمهم الروحي الأول ، و المسؤول عنهم ، و قال " أمرت أن أكون أول المسلمين " (12 / 39) .

بعد وفاة القس ورقة ، انتقلت الزعامة الروحية إذن إلى محمد ، وأصبح محمد " أول المسلمين " و بوفاة القس خشى محمد أن يتركه الله وينساه ، إذ " فتر الوحي " مدة من الزمن تتراوح بين السنتين و الثلاث سنين ، و عاوده بعد ذلك مع كثير من التغيير في المواقف و التبديل في التعليم و التشريع ، بما يناسب شخصية محمد و استقلاليته عن معلمه ، و بما يوافق الظروف و أحوال البيئة و المجتمع العربي . و أعلن القرآن ، عن عودة الوحي هذه بقوله : " ما ودعك و ما قلى " (3 / 93) .

و ما يؤكد لنا خلافة محمد للقس هو أن الإسلام ، في بدء أمره ، و كما كان في أيام القس و تحت تأثيره ، لم يكن ديناً جديداً ، و لم تكن دعوة محمد دعوة إلى دين جديد ، بل كانت تعاليم من التوراة و الإنجيل ، و تعاليم أبيونية في الحسنات و الصدقات ، و تبشير بالجنة و النار و القيامة ، و عيد بالعقاب ، و تذكير بأحوال الساعة الأخيرة . و لم يكن في نية محمد أن ينزل وحياً من السماء ، أو أن يدعى معرفة خزائن الله و علم الغيب ، بقدر ما كان يقصد إعلان كلمة الله الأعجمية بلسان عربي مبين ، مفصلة و مسيرة للحفظ و الذكر . فالوحي المحمدي إذن هو وحي لاحق لوحي سابق ، و كتابه العربي هو تصديق لما بين يديه من التوراة و الإنجيل ، و دعوته هي دعوة كانت " قبله " مع أهل الكتاب ، و ألهه هو " أله بني إسرائيل . قال : " لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل " (10 / 90) .

هذا هو قصد القس و منطلق الأحداث . و تلك هي مقاصد أهل السيرة . فلا نغفل عن الحقيقة و لو تنكر لها المنكرون و تجاهل المتدينون و قانع التاريخ . جل ما في المر أن القس يريد له خليفة على كنيسة مكة النصرانية ، فكان محمد بن عبد الله يتيم قريش قسا على كنيسة مكة . و مع هذا ، يريد مؤرخو حياة محمد ، إلى اليوم ، أن يكون الأمر غير ذلك ، ضناً بالنبوة و الدين الجديد ، فأغفلوا وجود القس ، و أنكروا لقاءاته المتعددة مع محمد ، و تجاهلوا إعلاناته . فالشيخ صبحي الصالح أراد ألا يكون بين القس و النبي ألقاء واحد ، يقول : " فما عسى أن يكون النبي تعلم في هذين اللقاءين (لقاء مع الراهب بحيرا و آخر مع القس ورقة) من علوم الغيب و التاريخ ؟ " (62) . و عندما يستشهد الشيخ بحديث البخاري يأخذ ما يناسبه و يتجنب ما يزعجه ، فينقل : " و لم يلبث ورقة أن توفي " ، و يترك " و فتر الوحي " (63) . و يستنتج : أن محمداً تعرف على ورقة في آخر أيام حياته ، و رآه عجوزاً ضريراً ، لا تصلح همته لأي شيء . و كذلك هو الأمر مع محمد حسين هيكل في موسوعته " حياة محمد " ، فهو يتجاهل أمر القس و دوره ، و لم يذكر من اللقاءات أو الإعلانات سوى اثنين و بطريق العرض (64) ... لماذا هذا التنكر ؟ أن كان جهلاً فهو لعنة في واقع التاريخ ، و إن كان تجاهلاً فهو طعنة في صميم الحقيقة .

بقي أن نسأل عن قصة الراهب بحيرا : لماذا يجهد مؤرخو حياة النبي في التركيز على الراهب بحيرا ، حتى تحولت أنظار الناس إليه على حساب القس ؟ الناس ، اليوم ، يلهجون باسم الراهب بحيرا ، و لا يعرفون عن القس ورقة شيئاً يذكر فما سبب ذلك ؟ و ما القصد منه ؟ إن في الأمر تضليلاً و تمويهاً للواقع : فالراهب بحيرا ، على مكانته العظمى في النصرانية ، و على كونه " انتهى إليه علم النصرانية في ذلك الزمان " ، و على مرور تجار قريش بصومعته في بصرى ، لم يكن له ذلك الأثر الفعال ، لأن رحلات محمد إليه لم تكن كافية للدلالة على تثقيفه على يده . و مهما يكن من أمر ، فإن اللقاءات المحدودة التي حصلت بين محمد و بحيرا لا تعطى النتائج التي نستطلعها في تعاليم القرآن ، و لا تستحق أن يعيرها الناس أهمية بالغة و يتوقفوا عندها . هذا يمكن نقضه بسهولة . و بالفعل توقف مؤرخو حياة النبي على دور الراهب فتوقفوا في نقضه و رفضه ، كما توقفوا في التركيز على الراهب على حساب القس .

(62) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، بيروت ، صفحة 45

(63) نفس المرجع .

(64) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، القاهرة ، صفحة 135 _ 137

و تركيزهم على الراهب و تحويل أنظار الناس إليه و ردهم على ما استنبطوا من أذليل حوله أعطى أهمية لبحيرا دون ورقة . و بهذا فقد أثر الاتنين معا . و انخدع الناس فيما بين الراهب و القس . و لسهولة رفض أثر الراهب ظن الناس أن أثر القس هو أيضا يرفض بالسهولة نفسها و كان قصدنا كشف هذا الضلال المكنون . عسانا وصلنا إلى المراد .

الفصل الثالث

إنجيل القس ورقة و قرأنه

أولا : إنجيل القس ورقة

ثانيا : القرآن العربى

ثالثا : استمرارية الوحي و التنزيل

رابعا : محمد يعلم ما تعلم

أولا : إنجيل القس ورقة

نذكر بمهمة القس ورقة التي عرف بها و لم يعرف غيرها ، و هي ، كما جاء على لسان المحدثين و فى صحيح مسلم (1) و صحيح البخارى (2) و أغانى أبى الفرج الأصفهاني (3) ، أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل بالعبرانية إلى العربية .

ما هو الإنجيل بالعبرانية ؟ ما هى تعاليمه ؟ هل وجد فعلا فى التاريخ ؟ من يحدثنا عنه غير القس ورقة ؟ الجواب على هذه الأسئلة عند آباء الكنيسة و مؤرخيها . فهم خير شاهد على تراث الكنيسة و كتبها المقدسة . وبالفعل ، نرى عندهم الكثير من الإشارات على ما يسمى فى تاريخ الكنيسة بـ " الإنجيل بحسب العبرانيين " . و علينا أن نستعرضها ، و نقابل بين إنجيل ورقة و بين تعاليمها ، و إذا صحت المقابلة نكون اكتشفنا قصة " اللوح المحفوظ " الذى نزل القرآن منه ...

ينقل أوسابيوس عن هجسيب ، و هو من أوائل القرن الثانى ، " أنه كان ينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين ، الإنجيل الأرامى الذى هو بالحرف العبرانى " (4) . و يشهد أوسابيوس نفسه على أن " الإنجيل بحسب العبرانيين هو الأصح فى نظر العبرانيين الذين آمنوا بالمسيح " (5) . و يقول عن الأبوين أنهم " كانوا يستخدمون فقط الإنجيل المسمى بحسب العبرانيين ، و قلما يكثرثون بغيره " . و يقول عن عقيدتهم : " أنهم كانوا يحفظون السبت و سائر العادات اليهودية و يغارون على إقامة أحكام التوراة ، و يعتبرون أن الخلاص يقوم لا على الإيمان بالمسيح وحده ، بل على إقامة شريعة موسى أيضا . (6) . و يقول فى مكان آخر : " أن المسيح ذكر الشقاق الذى ستعرض له النفوس فى العائلات ، كما نجده فى " الإنجيل بحسب العبرانيين " (7) .

أما أوريجينوس (+ 252) فيذكر هذا الإنجيل فى جملة كتب . يقول : " من يقرأ الإنجيل بحسب العبرانيين يجد فيه هذه الآية : " أن أمى الروح القدس يبنى بشعرة من رأسى و أصعدنى فى جبل ثبور العظيم " (8) . و يقول أيضا : " أن غاب الغنى ، بحسب الإنجيل العبرانى ، حك رأسه ، و لم يرض بعرض المسيح و قال له يسوع : كيف تقول أننى أتممت الناموس و الأنبياء ، و أنت ترى أخوتك أبناء إبراهيم يموتون جوعا و تخنقهم المذلة ، و بيتك مملوء خيرات ؟! " (9) .

و قرأ أكلينضوص الإسكندرى (+ 216) فى هذا الإنجيل قولا منسوبا إلى المسيح فقال : " كما هو مكتوب فى الإنجيل بحسب العبرانيين : من يعجب و من يملك يستريح " (10) .

أما أبيقان (+ 403) فيستفيض فى الكلام على الأبوين و إنجيلهم العبرانى عن الأبوين : " أنهم يأخذون بإنجيل متى ، و يعتمدون عليه وحده دون سواه ، لأنه الإنجيل بحسب العبرانيين . و إنجيل متى هذا ، الذى بحوزتهم ، ليس كامل بل هو محرف و ناقص " (11) . و كلام أبيقان هذا ترديد لكلام القديس أريناوس أسقف ليون (+ 208) الذى يقول : " أن الأبوين يستخدمون الإنجيل متى وحده ، و لكنهم لا يعتقدون الاعتقاد الصحيح فى الرب " (12) .

(1) صحيح مسلم (1 / 78 - 79)

(2) صحيح البخارى (1 / 38 - 39)

(3) الأغانى للأصفهاني (1 / 54)

(4) Eusebe , Histoire Ecclesiastique , Iv , 22

(5) Eusebe , Histoire Ecclesiastique , III , 25

(6) Eusebe , H . E . , III , 24

(7) Eusebe , Theophanie , IV , 12

(8) Origene , Commentaire sur saint Matthieu , XV , 14

(9) Origene , Commentaire sur saint Jean , II , 12

(10) Clement d Alexandrie , Stromates , II , 9 . 45

(11) Epiphane , PanRION , xxx , 3

(12) Saint Irenee , Contre Les Heresies , I , 26 , 2

و يذكر القديس جيروم (+ 420) هذا الإنجيل في جملة كتب في تفسيره لأشعيا (13)، و تفسيره لحزقيال (14)، و تفسيره لأفسس (15)، و تفسيره لمتى (16)، و في حواراه مع البلايين حيث يقول: " في الإنجيل بحسب العبرانيين الذى يستخدمه النصارى أيضا، و الموضوع فى الآرامية ... و هو قريب المشابهة بإنجيل متى، محفوظ فى مكتبة قيصرية " (17)، و فى كتابه مشاهير الرجال يقول: " أن الإنجيل المسمى بحسب العبرانيين، الذى نقلته حديثا إلى اليونانية و اللاتينية، و الذى أستخدمة أوريجينوس، يقول: أن يعقوب حلف بالأكل خبزا منذ الساعة التى شرب فيها كأس الرب إلى الوقت الذى رآه يقوم من بين الأموات. و قال له الرب: " خذ المائدة و الخبز"، و أضاف: " كل " خبزك، لأن ابن الإنسان قام بين الأموات " (18).

و غير هذه الشهادات كثير تجدها فى مقالة الأب " لأغرانج " فى " المجلة الكتابية " (19)، و هو يحقق فى أصل " الإنجيل بحسب العبرانيين "، و فى تعاليمه و صحة نسبته إلى الأبيونين. و الجدير بالذكر أنه لم يبق لنا من نصوص هذا الإنجيل ألا الشئ القليل، فى بعض كتابات الآباء و المؤرخين.

و يبدو أن هذا الإنجيل كان واسع الانتشار، بحسب شهادات الآباء الذين نقلنا عنهم. لقد كان بين يدي أغناطيوس الأنطاكي فى أنطاكية، و أوريجيون و أكليمنصوس الإسكندري فى الإسكندرية، و جيروم فى حلب، و إيريناوس فى آسيا. و فى مكة أيضا. و يبدو أيضا أنه ترجم إلى لغات متعددة: وضع فى الأصل باللغة الآرامية، ثم نقل إلى اليونانية، ثم إلى اللاتينية، و ربما إلى العربية. و جال فى عصور متتالية، منذ أوائل القرن الثانى حتى أواخر القرن الخامس، و ربما إلى يومنا هذا فى ترجمته العربية. و كثر الكلام عليه عند معظم آباء الكنيسة. و اعتمد عليه الأبيونيين، فتارة ما كان يسمى " بإنجيل النصارى"، و تورا " بإنجيل الأبيونيين" و أخرى " بـ"إنجيل الرسل الاثنى عشر" و فى جميع الأحوال أنه " تحريف " واضح لإنجيل متى الآرامى، أصل كل الأناجيل بعده.

و من الجائز القول بأن وجود الأبيونيين فى مكة و الحجاز يفرض حتما وجود " الإنجيل بحسب العبرانيين " . و ما يشير إلى ذلك اعتماد القرآن على تعاليمه فيما يخص المسيح و أمه و الروح القدس و الحسنات و الصدقات و أحوال المعاد الأخير ... فهى نفسها فى القرآن كما فى الإنجيل. و هى نفسها عند " الحمس " من قريش كما عند " الأبيونيين " من النصارى (20).

أما النقل الذى كان معتمدا فى ذلك الحين، و الذى كان يقوم به القس ورقة فى تعريبه للإنجيل فلا يعنى نقلا حرفيا و دقيقا كما هو اليوم، بل كان فى الحقيقة، كما يقول القرآن " تفصيلا: و " تيسيرا " و " تذكيرا " (21) ... و هذه الطريقة كانت متبعة فى القديم و فى الأوساط النصرانية و الكتب المقدسة نفسها. و للدلالة على ذلك " يكفى أن نقابل بين متى (4 / 15) و أشعيا (8 / 23) _ (9 / 1)، و متى (12 / 17) و أشعيا (42 / 1) _ (4) " (22). و هذه الطريقة فى النقل هى أقرب ما تكون إلى التفسير اللاهوتى و الدفاع عن الدين منها إلى النقل بالمعنى الصحيح " (23). أنها بلا ريب، طريقة النقلة الأقدمين كما هى طريقة القس ورقة فى نقله الإنجيل بحسب العبرانيين إلى العربية. " و لقد كان هناك مدرستان للنقل، أو نوعان من المدارس التفسيرية: مدرسة حرفية Midrachim darchani تتبع آيات التوراة آية فآية، و المدرسة التفصيلية Midrachim parchani تتبع المعنى الموجود فى مقاطع الكتاب " (24) بقى علينا أن نعرف شيئا عن الترجمة العربية نفسها. لكن هذا رهن بفرصة يوفرها لنا التاريخ، فيتاح للمنقبين فى آثار مكة و تحت رمالها اكتشاف تلك الترجمة الثمينة.

و ما دام هذا مستحيلا، يبقى لنا تحسر عليها و على صاحبها إلى الأبد. ومع هذا يفيدنا النظر فى الأثر الذى خلفه

